مشاهير العرب

٣

سعد بن أبي وقاص

عبد السلام العشري

دار المعارف

سعد بن أبي وقاص

مشاهير العرب
(٣)

سعد بن أبي وقاص

بقلم
عبد السلام العشري

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

صانع السّهام

التفّت الأسرة حول الفتاة الصغيرة ، ومسحت الأم دمعتين متحدرتين على خدى الفتاة المتوردين ثم قالت فى حنان : لا تحزنى يا بنيّى ، فسوف يكون لك فى هذا البيت أهل مثل أهلك وعطف مثل عطف أبيك وأمك ، ولن أكلفك إلا أن تحملى طعام الغداء إلى الحانوت .

ولم يكن أحد فى مكة يجهل حانوت السهام القريب من الكعبة أو لا يعرف صاحبه الفتى القرشى المعتز بنفسه ، فهو ابن مالك بن وهيب ابن عبد مناف ، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس .

كان الفتى يبكر إلى الحانوت قبل طلوع الشمس ، ويقضى يومه نشيطاً مكبًا على عمله ، راضياً بما يدر عليه ذلك العمل من ربح وفير ، فقد كان ماهراً فى برى السهام وصناعة القسّى ، وهى من عدد الحرب التى يحسب لها حساب كبير ، لأنها تصيب قبل أن تصيب السيوف ، وتصل إلى ما لا تصل إليه الرماح ، وهى كذلك عدة الترف لمن يهوون الصيد من الأغنياء ؛ يخرجون إليه للمتعة ، لا للقوت كما يصنع المقترون .

كان الفتى ناضر الوجه ممتلئ الجسم يميل إلى القصر ، تنطق ملامحه بأنه قطع السابعة عشرة من عمره ، يألفه شباب مكة ، ويحبون المكث فى

حانوته ليروا حركات يديه الماهرتين ، وليشاهدوا الوافدين عليه من طالبي السهام والقسيّ ، وما يبدو فى وجوههم وأحاديثهم من عزم واعتزاز ، وليسمعوا ما يقصه بعض هؤلاء عن طراده ومهارته فى الرمى ، وعما يجده من لذة حين تفر الظباء أمامه والسهام تلاحقها حتى تشل حركتها ؛ وما يرويه بعضهم عن حروبهم . مفاخرين بما ألقوا من سهام وما أصابت من عيون ورءوس وصدور . مصورين ما يحسه الرامى من زهو حين يخر العدو على البعد، قد أصاب السهم حبة قلبه فهوى فى كامل سلاحه وعدته ، وليتمتعوا كذلك بحديث الأعراب الذين يهبطون مكة فى ثياب البادية ولهجتها الجافة ، قد حملوا أمتعتهم على ظهورهم . وأقبلوا يبيعون ويشترون ، ويعرضون على الفتى الباسم قسيهم المكسورة ليرى فيها رأيه . أو ليشتروا جديداً أو يبروا بعض السهام .

واشتد ميل الفتيان إلى الحانوت ليروا الفتاة الصغيرة ذات العينين النجلاوين والبشرة الفضية والشعر الذهبى ، ولم يكن صاحب الحانوت يميل إلى كثير منهم ، بل كان يألف من يكبرونه من العقلاء الذين ينكرون على الظالمين ظلمهم ، ويودون أن يوضع حد لما فى مكة من العدوان والاستهانة بالضعفاء والمساكين ، وكان أكثرهم صلة به رجلا من كبار التجار ذا نسب وشرف ، يحبه القوم ويلقبونه عتيقاً لحسن وجهه ، يقبل كثيراً إلى حانوته فيتجاذبان أطراف الحديث .

٧

جاءت الفتاة بالغداء ذات يوم وكان عتيق جالساً فى الحانوت فسره حسنها ونشاطها وأدبها ، فسأل صاحبه :

ــ من تكون هذه الفتاة يا سعد ؟ !

ــ جارية اشتريتها يا ابن أبى قحافة .

ــ تبارك الخلاق العظيم ! وما اسمها يا سعد ؟

ــ درة يا عتيق ، ألا يعجبك هذا الاسم ؟ !

ــ عربية يا سعد ؟

ــ أمها فارسية وأبوها عربى من الحيرة ، وقعت فى يد بعض العرب القاطنين فى شرق الجزيرة ، حين هاجموا قافلة كانت تقطع الطريق من العراق إلى اليمن .

ــ أظنها من بنات الأمراء يا سعد !!

ــ إنها تقول ذلك يا ابن أبى قحافة ، وقد حدثتنى بأمر عجيب نسيت أن أحدثك به .

ــ تقول الصدق يا سعد ، ألا ترى ما فى وجهها من النضرة وما فى حديثها من الأدب ؟ ! احتفظ بها يا سعد وأحسن رعايتها ، وأكرم عزيز قوم ذل ، ولكن ما الأمر العجيب الذى حدثتك به ؟

ــ شىء لا يتخيل يا عتيق ، لكنها تؤكد أنه شائع فى بلادها وفى بلاد الفرس .

ـــ يتعلق بالعرب يا سعد ؟

ـــ بالعرب جميعاً يا ابن أبى قحافة ، ملك كبير وسلطان عظيم !

ـــ فى الجزيرة يا سعد ؟ !

ـــ فى الجزيرة ، وفى بلاد الفرس الممتدة من شرق بلاد العرب إلى بلاد الصين ، فقد رأى كبير من رجال الدين عندهم يسمى الموبذان رؤيا فى أيام كسرى أنو شروان ، وقصها على الملك وعلى المفسرين فأخافتهم وأولوها بملك العرب ، ولم يهدأ الملك حتى حسبوا له السنوات التى بينه وبين تحقيقها فوجدها طويلة فاطمأن قليلا ، لكنه ظل قلقاً حتى مات . رأى ذلك الموبذان يا ابن أبى قحافة أن الإبل الصعاب تقود الخيل العراب وتقطع نهر دجلة ثم تنتشر فى فارس وتستولى على بلاد الأنهار والقصور والرياحين . كان ذلك منذ أربعين عاماً يا ابن أبى قحافة ، هكذا تقول درة وتؤكده .

وابتسم عتيق لهذه البشارة ، ثم خاضا فى شئون القسى والسهام ، وشئون مكة والأصنام المنصوبة حول الكعبة ، يعبدها الناس ويتقربون إليها ويلبون رغباتها ويخافونها كأنها ترى وتسمع وتغضب وترضى . ثم انصرف عتيق وهو يوصى سعداً بالفتاة التى تبشر العرب بالملك العريض صائحاً :

ـــ ليس على الله مستحيل يا سعد !

٩

القافلة

لم يلتق الفتيان في الغد في حانوت سعد ، لأن مكة كانت تستعد لاستقبال القافلة العائدة من بلاد الفرس ، قد اهتم بها من لهم فيها تجارة ومن ليس لهم فيها شيء ، لأن تلك البلاد كان لها رنين في مسامع العرب ليس لغيرها من الممالك التي يتصلون بها . كانت مكة تتناقل القصص الكثيرة عن خيرات تلك البلاد ومتعها ، يرويها كثير من الناس وخاصة الجوارى الفارسيات ، يفضن فيها فيصدقن أحياناً ويغالين أحياناً لا سيما حين يقسو عليهن سادتهن . وكان العرب القاطنون على حدود تلك البلاد في شرق الجزيرة كثيراً ما ينتهزون ضعف ملوك الفرس أو قيام ثورة من الثورات التي لا تكاد تنقطع في بلادهم ، فيغيرون على حدودهم وتسير أخبارهم في الجزيرة . فكانت عودة القافلة فرصة يستوضح بها القرشيون تلك الأخبار . وكان أبو سفيان بن حرب قد خرج إلى تلك البلاد في تجارة عظيمة وحمل معه الهدايا لملك الفرس ، ممثلا عظمة قريش تمثيلا يليق بحماة البيت الذى يعرفه الملوك ، ولا ينسى أحد أنه هزم بجيش أبرهة الحبشى حينما هم بالعدوان عليه .

كان هذا اليوم محدداً لعودة القافلة ، يعرفه أهل مكة ويؤكدونه ، فهم خبراء بمسالك بلادهم ، علماء بما يستغرقه المسافرون فى الذهاب والإياب ، لأنهم يقدرون المسافات بخطوات الإبل ، وخطواتها منتظمة لا تكاد أزمانها تختلف إلا إذا حدث فى الطريق عائق من ثورة الرمال أو هجوم اللصوص والفتاك ، لكن قريشاً ذات عز ومنعة ، لا يستطيع أحد أن يهاجم قوافلها ، ولم تثر الصحراء فى هذه المدة ، فكانت مكة على ثقة من عودة القافلة فى ذلك اليوم .

خرج كثير من أهل مكة لاستقبال القافلة ، وجلس الرؤساء فى نواديهم يترقبون ، واستعد من له مال فى القافلة ليسمع البشرى بالربح الوفير ، ودقت قلوب الأمهات دقات الخوف والأمل ، وتسللت الجوارى الفارسيات يتنسمن رائحة بلادهن ، وكانت درة فياضة الشوق تود لو تضع يديها على الجمال التى سارت فى بلادها ، وتلمس كل من لمس أرضها وشم هواءها وشرب ماءها ، ولمح سعد شديد اهتمامها فأشفق عليها ، وأذن لها بالخروج لتخفف شيئاً من لوعتها ، وتطفىء بمنظر اللقاء بعض ما فى صدرها من الحنين لأهلها ووطنها .

كانت الشمس تميل للغروب وقد نثرت غلالة ذهبية على رءوس الجبال ، وفى امتداد أشعتها كانت الأنظار ترتمى فى مطارح بعيدة لتلتقى بالركب وتطمئن على العائدين ، ووضع الكثيرون راحاتهم فوق أعينهم

لتحدد أنظارهم ، والتقى الفتية فوق القمم ودارت أعينهم تبحث عن سعد حتى لاح من بعيد فتى يرتقى الجبل فى خطوات ثابتة فصاحوا به جميعًا :

ــ سعد ! انظر يا سعد ، أترى شيئًا فى الأفق ؟ !

واستوى سعد على رأس الجبل ، وألقى بصره فى الأفق الممتد فى أشعة الشمس ثم صاح فى ثقة :

ــ القافلة !

فارتفعت الأعناق ، وتطاول القصار ، ومسح الكثيرون عيونهم ، ثم أعادوا النظر فلم يروا إلا بقعًا سوداء فى الطريق كما يعهدون فى مسالك الصحراء الممتلئة بالرمال والأحجار ، ثم صاحوا فى غضب :

ــ تسخر منا يا سعد ؟ ! ليس إلا بقع سوداء ، وأغلب الظن أنها حجارة صغيرة !

وألقى سعد بصره على الناس ثم صاح فى ثقة :

ــ لكنها القافلة أيها القوم ، يقودها أبو سفيان على بعير أدهم !

وأخذت القافلة تقترب شيئًا فشيئًا ، وتتضح معالمها شيئًا فشيئًا حتى ظهر أبو سفيان على بعيره الأدهم فماج القوم وارتفعت الأصوات : « مرحى سعد ! مرحى سعد ! » وتسارع الناس هابطين يهرولون إلى أبنائهم وإخوانهم وأحبابهم ، وقفز كثير من الركاب وعانقوا مستقبليهم ، وضمت الصدور الصدور لتطفىء لهيب الشوق وحر الفراق ، وانطلقت الألسنة

بالترحاب والتهانى ، وامتلأت بعض العيون بدموع الفرح ، وراحت عيون أخرى تبحث بين القافلة فى لهفة ، ثم ازدحمت بها دموع حزينة، وعاد أصحابها ناكسى الرءوس فقد ثوى أبناؤهم وإخوانهم فى أحضان الصحراء .

التفت سعد فوجد الفتاة الصغيرة معلقة عينيها بالقافلةوالدموع تبلل وجنتيها ، ثم ازدحم الحزن فى صدرها فأجهشت بالبكاء وولت وجهها عن الناس ، فأسرع إليها ثم صاح بها فى حنان :

ــ درة ! ماذا بك يا درة ؟ ! ألا يسرك منظر القافلة ؟ !

فابتلعت الفتاة دموعها ، وحاولت أن تجفف شيئاً مما فى وجهها ثم قالت فى صوت خفيض :

« سرنى يا سيدى وخفف شيئاً من لوعتى ، وشممت فى القافلة رائحة أبى وأمى .

ثم احتبس صوتها وخنقتها العبرات ، فتأثر سعد وعرف ما طاف بها حين رأت الركب وتذكرت أمها وأباها وما هى فيه من العبودية ، بعد أن كانت تأمر وتنهى فلا يعصى لها أمر ولا نهى ، فصاح بها فى عطف : « عودى إلى البيت يا درة ! عودى فأنت حرة ! » . فأعادت الفتاة النظر إلى سيدها من خلف دموعها ثم قالت وهى تهم بالعودة :

« وماذا تصنع الحرية لفتاة ليس لها أهل ولا وطن ! » ثم سارت إلى البيت .

ومضى سعد مع القافلة المتحركة إلى مكة ، ثم أخذ طريقه إلى المنزل بعد أن حيا أصحابه ووعدهم أن يسمر معهم تلك الليلة ، ليسمع ما يقصه أولئك التجار من غرائب المدن وعجائب الأمصار ، ويمتع نفسه بما يرويه بعضهم من أعمال البطولة فى اختراق الآفاق واجتياز العقبات ، وما يضيفونه إلى الحوادث من صور بعيدة عن الحقيقة وإن كانت لذيذة محببة إلى القلوب ، ويعلم أنباء من لم يعد ، ويعرف ما حدثته به درة من أخبار الفرس ومهارتهم فى الرمى واستخدام القسى ، ثم طاف بالكعبة ووقف أمام الأصنام فبدت له حجارة كالصخور الناتئة فى الجبال لا تمتاز عنها بشىء سوى أنها صورت فى صور مختلفة ، وأن كبيرها هبل ذو جسم من العقيق وذراع من الذهب . وأحس بالضيق يزدحم فى صدره فأسرع إلى البيت ونزع قوسه وكنانته وتناول الطعام ، ثم أوى إلى حجرته ، وظل يعد فكره باحثاً عن سبب هذا الضيق ، حتى تقدم الليل وألهاه التفكير عن الذهاب إلى القوم كما تواعدوا ، فاضطجع فى فراشه ثم راح فى سبات عميق .

القمر

ألقت شمس الصباح على مكة غلالة متلألئة ، فيها حرارة تتزايد كلما ارتفعت فى السماء ، واستيقظ سعد مبكراً كما اعتاد ، لكنه ظل فى فراشه يمد بصره فى جوانب الحجرة ، وكانت أمه قد أعدت له طعام الإفطار كما تصنع كل يوم غير معتمدة على الخدم والجوارى ، لم تجرب عليه أنه نام إلى الضحى كما يصنع كثير من فتيان مكة المترفين ، تعرف أنه رجل عمل وجد ، وأن بعض حرفائه يبكرون إلى حانوته وهم خارجون إلى الصحراء ، وارتابت فى تأخره ودخلت حجرته لتطمئن عليه فوجدته فى سريره حائر البصر يديره حوله ،فألقت عينيها حيث ينظر فلم يقع بصرها على جديد ، فصاحت فى دهشة :

— نَعِم صباحك يا سعد، لقد ارتفعت الشمس ولم تبرح سريرك، فماذا بك اليوم ؟ !

— لا شيء يا أماه ، ولكنى أحس بالحاجة إلى الراحة .

— بل شيء يا سعد ! قرأت ما يضطرب فى صدرك ، ورأيت فى نظراتك الحائرة دليلا على أنك تقلب فى رأسك أمراً ، فهل عرض لك أحد بسوء أمس ؟

— ومن يستطيع أن يعرض لى بسوء يا أماه ؟ ! إن فى سهمى وقوسى

وذراعى المفتولتين وتنشئتك الحكيمة ما يدفع عنى كل سوء .

ـــ أحزين أنت على ابن عمك الذى وافاه الأجل فى فارس ؟

ـــ كل شىء بقدر يا أماه ، ولا تدرى نفس أين تموت ، ولا يملك أحد لنفسه ضرًا ولا نفعًا ، كلها بلاد الله يا أماه ؛ مكة أو فارس أو الروم أو الشام أو اليمن ، كلها أرض الله ، وإذا جاء الأجل فلن يدفعه مكان ولن يؤخره زمان ، ألا يموت من فى مكة يا أماه ؟ !

وأطرقت المرأة قليلا ثم رفعت بصرها فوجدته غارقًا فى حيرته فقالت فى حنو : « إذا لم يكن شىء من هذا فما الذى أهمك ياسعد ؟ ! أنت محبوب رابح العمل ، فلا بد أن يكون فى طريقك شىء ، لكنى أستبعد أن يكون نزغة من نزغات الشباب ، أسرر إلىّ ولن أبوح » .

ونظر سعد إلى أمه التى ورث منها الحزم وكبر القلب وسداد الرأى ثم قال :

ـــ القمر يا أماه ! القمر الذى أنقذنى الليلة !

فاشتدت حيرة المرأة ، وغمرت ابنها بنظرة فاحصة فرأت فى عينيه بريقًا غريبًا ، وحاولت أن تنفذ إلى صدره فتكشف ما أهمه وما لا يريد أن يفصح به ثم قالت فى دهشة :

ـــ القمر ! وأين التقيت الليلة بالقمر ؟ ! إنك لم تبرح البيت منذ عدت مبكراً ، فأين التقيت بهذا القمر الذى أنقذك ؟ ! ومم أنقذك هذا

القمر ؟ ! إنك تتحدث اليوم بشيء عجيب ! وهل يصرفك هذا القمر عن عملك والتبكير إلى حانوتك ؟ !

وصمتت المرأة ، ونظر إليها سعد فوجدها غارقة فى دهشتها تنتظر أن يجيبها جواباً شافيا ، فهم من سريره يردد باسما : « القمر يا أماه ! سأحدثك عنه فى المساء » ثم ارتدى ملابسه وانصرف عن البيت غير ملتفت إلى الطعام المعد ، قد افتر ثغره عن ابتسامة رقيقة لم تخف ما يضطرب فى نفسه ، لكنه صاح قبل أن يغادر البيت : « لا ترسلى درة بالطعام يا أماه ! لا ترسليها إلى الحانوت فلم تعد عبدة » .

زادت حيرة المرأة ونظرت إلى درة فى دهشة ، وقد ظنت أن عندها مفتاح ما ألم بابنها ، لكنها لم تشأ أن تسألها عن شيء حتى ترى ما ينتهى إليه ذلك الاضطراب الذى كشفته هذا الصباح ، وأسرع الفتى إلى الحانوت فوجد حرفاءه فى انتظاره ، قلقين لتأخره على غير عادته ، وأخذ يفتح الحانوت وهم يصيحون فى فرح : « خيراً يا سعد ! » وهو يردد فى هدوء : « خيراً وبركة إن شاء الله » ثم أقبل على عمله فى وجوم أدهش حرفاءه ، فأعادوا أسئلتهم وأعاد جوابه وهو مستمر فى عمله ، مؤديا ما يريدون حتى لبى رغباتهم جميعاً ، ثم امتدت يده إلى مفاتيح الحانوت فأغلقه وسار فى شوارع مكة ، حتى وجد نفسه أمام منزل من منازلها الكبيرة وصاحبه يرحب به ويدعوه للدخول ، فدخل ثم جلس صامتاً .

وأقبل الخادم بالتحية فمد صاحب البيت يده وتناول تمرة من الطبق ثم قال فى هدوء : « بسم الله الرحمن الرحيم » فانتفض سعد ، وسرت الرعدة فى أوصاله ، ولم يمد يده إلى الطبق ، فنظر إليه الرجل فى ابتسامة رقيقة ثم قال : « تمر عظيم يا ابن أبى وقاص ! خذ هذه مباركة طيبة » ومد سعد يده وتناول الثمرة ، لكنه لم يضعها فى فمه ، وظلت فى يده وعيناه تنظران إلى الأرض ، فابتسم الرجل ثم قال فى صوت هادئ :

— ماذا أهمك يا سعد ؟ ! ألم يربح مالك فى القافلة ؟

— لم يكن لى فى القافلة مال يا ابن أبى قحافة !

— ألم يعد أحد أصدقائك ؟ !

— وهل يحزن العاقل لأن أحداً مات يا ابن أبى قحافة ؟ ! كل نفس ذائقة الموت ، وما خلقنا للخلود فى هذه الحياة !

— أفى رأسك أمر تود ألا تكشفه يا سعد ؟ !

— فلماذا جئت إذن يا عتيق ؟ ! قد اخترتك لتكون أول مطلع على ما فى نفسى ، فقد امتلأ صدرى بهم ثقيل !

— أسمرت الليلة مع السامرين وسمعت قصصهم ؟

— بل سمرت مع رؤيا عنيفة يا ابن أبى قحافة ، رأيت أنى سائر فى طريق مظلم لا أستطيع كشف جادته ، وقد حاولت أن أشقه فارتطمت بصخوره الناتئة ذات اليمين وذات اليسار ، ومع أنى كنت فى عدتى وسلاحى فقد

غمرنى خوف شديد لم أعهده فى نفسى ، حتى يئست وضقت بذلك الظلام الموحش ، وطفقت استغيث ، فاذا بالقمر يشرق فجأة يا عتيق .

انبسطت أسارير عتيق ، وكان قد آمن بمحمد بن عبد الله الذى نزل عليه الوحى من الله بدين جديد يدعو إلى الإخاء والمساواة ، ونبذ الأصنام ، وتحطيم الفساد المنتشر فى الأرض ، فغمر الفتى بنظرة باسمة ثم قال فى رفق : « عندى تأويل رؤياك يا ابن أبى وقاص ، فأنت من الأعفاء الذين لم تشهد عليهم مكة شيئاً من طيش الشباب ، لقد رضى الله عنك وهداك إلى الخير ، وأرسل لك القمر الذى يغمر الدنيا بنوره ويهدى إلى الطريق المستقيم » .

وأطرق سعد قليلا ثم رفع رأسه فى هدوء كأنه وجد واحة ظليلة بعد رحلة شاقة فى صحراء موحشة ، ثم قال فى أمل : « هل أذن الله يا عتيق ؟! » فصاح عتيق فى سرور غامر :

ـ أذن يا سعد ، فهيا إلى رسول الله فى شعب أجياد ، وسوف تلتقى بمن تحبهم ويحبونك ، أذن الله لهم بمثل ما أذن لك ، وشرح صدورهم للحق ، ولاح لهم القمر الذى لاح لك ، وكنت وإياهم على موعد لنذهب إلى رسول الله فنسمع آيات الله ، هيا يا سعد إلى الله وإلى رسول الله .

ملوك الأرض

أسرع كثير من القرشيين إلى ظل الكعبة والتفوا حول أبي سفيان ابن حرب ، وأخذ هو ومن كانوا فى القافلة يتحدثون عما رأوا فى بلاد فارس من الجنات ذات الأشجار المتشابكة والقطوف الدانية ، وعن القصور العالية والأنهار العذبة الجارية ، تسيل مياهها فوق الأرض دون أن يخرجوها بدلاء ، وتتهادى فيها السفن وتهتز القوارب ، ويصفون كسرى وتاجه المرصع باليواقيت وجيوشه الجرارة ، وما فى تلك البلاد من قوانين تضبط تصرفهم وتعاملهم ، لكل من خالفها عقاب على قدر مخالفته يحكم به قضاة معينون لذلك ، إلا إذا أراد الملك أمرا فينفذ حكمه دون قضاء ولا جدل ، وكانوا ينصتون إلى تلك الأحاديث وأفكارهم تتقلب فى جوانب حياتهم فلا يجدونها شيئاً بجانب ما سمعوا وإن كان بعضهم قد أقنع نفسه بأن حياتهم خير من تلك الحياة ، لأنهم يعيشون أحراراً يقولون ما يريدون ويتصرفون كما يودون ، وينتقلون حيثما أحبوا ، ويقيمون حيث يطيب لهم المقام ، بعيدين عن تلك القيود التى تتحكم فى البشر وتجعلهم عبيداً للملوك .

وكانت آذانهم تسمع وأيديهم تقلب صحافاً من الذهب والفضة ،

وعيونهم تدور فى أوساط تلك الصحاف وجوانبها متتبعة ما عليها من النقوش ، وكل يصيح بالقوم ليروا ما فى يده ؛ هذا غزال يفر أمام الصائد كأنه حقيقة ، لا ينقصه إلا الروح ويتحرك ؛ وتلك أشجار ملتفة الأغصان دانية القطوف يجرى تحتها الماء فى صخب يكاد صوته يلمس الآذان ، وهذه صورة كسرى تحت رايته الكبيرة مزهواً على فرسه ، وحوله الخيول تزحم الفجاج يكادون يسمعون صهيلها ووقع حوافرها .

ثم مد أبو سفيان يده بالصفحة المرسوم فيها كسرى وصاح ساخراً :

ــ يريد محمد بن عبد الله الفقير أن يكون له مثل هذا ؟! وأنى له ذلك السلطان وتلك الأرض التى تنبت الذهب والفضة ؟!! طار به الخيال إلى بلاد لن يدخلها ولن يجد من يحمله إليها ! ألم يسمع ولم ير ؟ ! أروه هذه الصفحة التى تدور فيها معركة كسرى لعله يثوب إلى رشده .

ثم التفت إلى رجل من الجالسين وصاح فى تهكم :

ــ ألا ترد قريبك يا أسود بن عبد يغوث ؟! لعل فى الخطة أن

يعطيك مملكة من تلك الممالك التى استولى عليها فى الخيال ! ولقد أغوى قريبًا لك اليوم !

ــ قريبى أنا ؟ ! ومن يكون هذا الغر الذى خدعه محمد ؟ !

ــ سعد بن أبى وقاص بن وهيب ، سعد ابن عم آمنة بنت وهب يا أسود ، ألست ابن خال هذا النبى وابن عم سعد صاحب حانوت السهام ؟ ! لقد رؤى سائراً مع ابن أبى قحافة فى حذر كأنهما يتلصصان ، وذهب الناس إلى حانوته فلم يجدوه ، وما عهدناه يغلق الحانوت من الصباح إلى المساء ، وأرى أن تذهب إليه وتقنعه بترك ما أقدم عليه ، وتريه طريق الصواب قبل أن يضيع عليه محمد عمله ووقته وثقة الناس به .

فابتسم الأسود ثم نظر إلى أبى سفيان قائلا : « إذا كان الأمر جديراً بالاهتمام فأنت أقرب إلى سعد ، تستطيع رده أو تسلط عليه حمنة أمه ، أليست حمنة ابنة عمك يا أبا سفيان ؟ !

وسخر بعض الجالسين من أن يأخذ حديث محمد مأخذ الجد ويثير كبير الاهتمام ، وصاح واحد منهم : «دعونا من ملوك الأرض هؤلاء ، فهل يظن محمد وعتيق وعلى وزيد بن حارثة أنهم سيملكون ما يغنيهم ، فضلا عن ملك عريض أو صغير ؟ ! وضموا إليهم سعد بن أبى وقاص فلم يضيروا شيئًا ». فصاح أبو سفيان فى اهتمام : « ونسيت عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله ! ولا ندرى

مَن بعد ذلك ! » . وعاد الرجل يصرفهم عن هؤلاء الذين تابعوا محمداً وصاح فى سخرية : « دعوهم يحلمون واتخذوهم وسيلة تزجون بهم الفراغ وتسهلون بها جد الحياة ، فلا بد فى كل مجتمع من أمثال هؤلاء المجانين يتفكه بهم الناس ويديرون عليهم أحاديثهم إذا أثقلهم الجد وكدهم العمل ، وسوف ينجلى أمر محمد ودينه وقرآنه عما انجلت عنه أمور الذين ادعوا النبوة قبله ، فلا تشغلوا أنفسكم به وبأتباعه ، ودعوا ملوك الأرض فى خيالهم يملكهم الشرق والغرب والشمال والجنوب فإن الجنون فنون ، ولكن أخبرونى هل تستطيعون أن تعرفوا كيف قسم هؤلاء المجانين بقاع الأرض بينهم ؟ .

وسر الجالسون لهذه الفكرة ، وساد صمت لم يدم طويلا حتى قطعه بعضهم صائحا : « عثمان يناسبه عُمان » فضحك الجميع وصمتوا قليلا ثم صاح آخر : « وسعد يناسبه فُرس » فأغمضوا عيونهم لأن الكلمتين ليستا على وزن واحد ، وأسرع آخر قائلا : « سعد يناسبه مصر » فصاحوا جميعاً : « ولا هذه ! » ثم قال آخر : « وطلحة يناسبه قلعة » فانفجروا فى الضحك ، وصاح بعضهم : « أية قلعة تعنى ؟ فقال الرجل والضحك يهزه : « ضعوه فى أية قلعة ؛ فى بلاد فارس أو الروم أو مصر ، حتى أختار له إقليما يناسبه » فاشتد القوم فى ضحكهم ، وصاح آخر : « وماذا سيقال فى ابن أبى قحافة ؟ لقد قلبت الأرض ظهراً لبطن فلم أجد

ما يناسبه » فصاحوا جميعاً : « دعوه فى بلاد العرب ؛ فى تبالة أو كنانة ، أما ابن عبد الله فاجعلوه فى بلاد الله !

وعلا التصفيق وارتفعت القهقهة ، واستمرأ القوم هذه السخرية ، وكان المطعم بن عدى قد أحضر معه بعض القسى ليصلحها ، فتركهم إلى حانوت سعد فوجده مغلقاً ، فذهب إلى بيته وسأل عنه فأنبأته أمه أنه لم يعد منذ الصباح ، وأنها تعتقد أنه فى الحانوت فما اعتاد أن يفارقه ، فابتسم قائلا :

ــ أصبح لا يهمه إصلاح القسى ولا بيع السهام يا حمنة ! شغله الملك عن هذه الأشياء الصغيرة !

ولم يتمالك الرجل نفسه فانفجر ضاحكاً وأدار رأسه لينصرف ، فاستوقفته أم سعد صائحة :

ــ أين سعد يا مطعم ؟!

ــ جئت أسأل عنه يا حمنة ، ولم أكن أظن أن الملك قد شغله ، حتى يترك حانوته وينصرف عن عمله !

ــ ماذا بك يا مطعم ؟ ! أى ملك تعنى ؟ !

ــ لا شيء بى يا أم سعد ، ولكن ابنك مرشح لملك فارس !

وانفرجت شفتا أم سعد عن ابتسامة ساخرة ، ثم ذابت على شفتيها فقد تذكرت أمراً ، وقالت فى لهجة حادة :

ـ أجنون هو ؟! من الذى رشحه لهذا يا مطعم ؟!

ـ النبي الجديد يا حمنة ، رشحه ورشح غيره للملك آخر ، هنيئاً لك يا حمنة ، ستصبحين أم الملك ، فأعدى نفسك لتخطرى فى الحرير ، تجرين ذيلا طويلا كذيل الطاووس على أبسطة العجم ، وخلفك مئات من الجوارى الحسان رهن إشارتك ، وستركبين الهودج الراقص على ظهور الفيلة ، وتخرجين للصيد ، وتنثر عليك الورود ، أم ملك الفرس يا حمنة!

وزفرت المرأة زفرة شديدة ثم صاحت فى غيظ :

ـ أجننت يا مطعم ؟! ماذا بعقلك اليوم ؟!

ـ لا شيء يا أم الملك ! وكثيرات من مكة سيكن مثلك ، بعضهن فى بلاد الروم وبعضهن فى مصر وبعضهن فى اليمن ، وستتزاورن وتجمعن تلك البلاد المتفرقة المتحاربة ، وتقضين على النزاع الثائر بينها اليوم ، ولكن إياكن والخلاف والتباغض !

وانخرط المطعم فى ضحك عال هز جسمه السمين هزات متتابعة ، وأم سعد تنظر إليه ولا تدرى ما يعنيه ، ثم لوى عنقه وسار مهتزاً وهى واقفة تشيعه بنظرات الدهشة ، ثم أوصدت الباب وجلست تفكر فى هذا الحديث وفى مسلك ابنها الجديد ، وقفز إلى ذهنها ما سمعته من درة وهى تتحدث عن رؤيا الموبذان والخيل العراب والإبل الصعاب ، وهمت أن تستعيد درة هذه القصة ، لكنها أمسكت ، فقد استبعدت ذلك حين

روتها ، ولم تتصور أن العرب يملكون بلاد الفرس ذات الحول والطول . وكانت الفتاة حاضرة حديث المطعم ، قد غمرها السرور حينما سمعت فارس وملكها . وهمت أن تعيد على سيدتها الرؤيا ، لكنها آثرت أن تلوذ بالصمت حتى يعود سيدها ، فلعله يجلو ما خفى من حديث المطعم .

الإيمان

انتبهت أم سعد على دقات الباب فأسرعت إليه قبل أن تصله درة ، فاستقبلها سعد باسم الوجه وحياها قائلا : «السلام عليك يا أماه». فانتفضت المرأة صائحة : « أى تحية هذه اليوم يا سعد ؟ ! أين تحية الأصنام ؟ ! » فابتسم سعد لثورة أمه . وأيقن أنها عرفت أمره ثم قال فى هدوء : « السلام يا أماه هو الأمان والرضا وعدم العدوان . أليس تحية لطيفة يا أماه ؟ ! أليس السلام خيراً من عِمْ صباحاً وعِمْ مساء ؟! ». فصاحت المرأة فى غضب :

— شيء جديد اتخذته العرب يا سعد ؟ !

— نعم يا أماه ، جديد سمعته فأحببته ، وجرى على لسانى لطيفاً رقيقاً ، فرأيت من البر بأمى أن أسارع بإسماعها إياه !

فهزت المرأة رأسها وألقت على ابنها نظرة عنيفة ، ثم صاحت فى سخرية :

ــ لعله دعاء الملوك يا سعد !

ــ أى ملوك تعنين يا أماه ؟!

ولم تجب المرأة وانتحت جانبًا من البيت ، وطلب هو الطعام وأخذ يأكل فى لذة ، ويشكر لأمه حسن إعداد هذا الطعام ، وهى فى دهشة لأن الطعام ليس فيه جديد عما اعتاد ، وما زال حتى شبع ثم نظر إلى السماء وصاح فى خشوع : « الحمد لله الواحد الأحد رب السموات والأرض ، رب الكون العظيم » . وخفض بصره فوجد أمه بجانبه تنظر إليه فى غضب ، ثم صاحت فى قوة :

ــ أصبأت يا سعد ؟!

ــ بل آمنت يا أماه ؟!

ــ بل تركت دين آبائك وأجدادك ، وعزمت على ترك عملك إلى خيال المجانين ، وأغلقت الحانوت وسرت وراء الخداع والأمل الكاذب ، أتظن أنك ستكون ملك الفرس ؟! لقد غرك محمد وخدعك ابن أبى قحافة . وكم قبل محمد مَن حلّق بهم الجنون فوق قصور من الذهب واليواقيت ، وأفنوا حياتهم لم يصلوا إليها إلا فى حدائق الخيال اليانعة ، فلا تُضع وقتك ، فلن ينفعك محمد ولا قرآن محمد ، كفى أن أغلقت الحانوت منذ الصباح !

فابتسم سعد لأمه الملتهبة غضباً ، ثم قال فى هدوء :

ــ إنه الإيمان يا أماه ، يشرح الصدر ، ويذهب الغل ، ويساوى بين الناس ويعطف القلوب ، وأرجو أن يشرح الله صدرك حتى تجدى برد الإيمان على قلبك ، وتعيشى فى الحياة فى رحاب الله ، وفى الآخرة فى رضوان الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، آمنى يا أماه فما أحلى الإيمان وأجمله !

فصاحت المرأة فى شدة :

ــ بل ستترك أنت هذا الدين ، وتعود إلى الأصنام التى عبدها آباؤك وأجدادك .

فابتسم سعد ثم قال فى نبرات يملؤها العطف والرقة :

ــ لن أتركه يا أماه ، وسأدعو الله أن يهديك ، ولست أود أن تبعد منك الجنة العالية ذات القطوف الدانية .

فصاحت المرأة فى غضب وسخرية :

صور لكم الوهم كل مستحيل ؛ فى الدنيا بلاد فارس ذات الأنهار والقصور ، وفى الآخرة جنات عالية دانية القطوف ، خدعك محمد بخياله ، ولعلك تابعته لأنك قريب أمه !

ــ بل هو الإيمان يا أماه ! أليس القمر هو الذى كشف لى الظلمة الحالكة فاهتديت بعد الضلال ؟ !

ــ أضغاث أحلام ! وستخضع لأمرى وإلا افترقنا يا سعد !

وأطرق سعد قليلا ، ثم رفع رأسه وقال فى صوت هادىء :

ــ سأترك لك البيت يا أماه إذا شئت !

ــ بل أنا التى سأترك لك الحياة يا سعد !

وصمت سعد قليلا ثم رفع عينيه إلى أمه فرأى صدرها يعلو بزفراتها ويهبط ، فقال فى حنان :

ــ وتهون نفسك عليك يا أماه ؟ ! ذلك قتل للنفس ، وهو محرم ، فى دين محمد .

ــ ولكنه ليس محرماً فى دين الأصنام يا سعد !!

ــ أرأيتِ الفرق بين الدينين يا أماه ؟ ! دين يحافظ على النفس ، ودين يحب الدماء ويهوى قتل الأبرياء ، سوف أمنعك من ترك الحياة يا أماه لأنها مكان العمل الصالح الذى يؤهل للآخرة الناعمة .

وفاض الغضب بالمرأة فصاحت فى شدة :

ــ لا تكثر يا سعد فلن تستطيع منعى ، وسوف أصنع ما لا طاقة لك به ، سأترك الطعام والشراب حتى أموت أو تعود أنت إلى دين الأصنام ، فليس لى قدرة على سخرية قريش !

ترك سعد المنزل إلى الحانوت وأطرق يفكر فيما عزمت عليه أمه ، ويبحث عن حل إذا استسلمت لشيطانها ، ومكث إلى الليل ثم أغلق

الحانوت وعاد إلى البيت فوجدها غارقة فى حزنها ،واضعة رأسها بين راحتيها فصاح فى صوت رقيق :

ـ أين الطعام يا أماه ؟

ـ تحضره لك درة .

لم أعتد ذلك يا أماه ! أكرهت سعدا وحديث سعد ؟ ! ألا تأكلين معى يا أماه ؟ !

ودعا بالطعام ، وأخذ يأكل أمامها ليثير رغبتها ، لكنها نهضت إلى مكان بعيد فترك المائدة ، وأوى إلى غرفته وأغلقها عليه

نهض سعد قبل شروق الشمس ، وحاول أن يثنى أمه عن عزمها فوجدها صلبة لا تلين ، فخرج إلى الحانوت دون إفطار ، وكان على يقين أن كثيراً من القرشيات سيعلمن بأمرها ويسرعن إليها ، ويصورن لها هوان الموت بجانب عصيان الأبناء لأمهاتهم ، ففكر ألا يبرح المنزل حتى يحول بين أمه وبين هذا الشر ، لكنه رأى أن يغادر البيت حتى تجد أمه متنفساً فى الحديث ، وربما سمعت من بعض العاقلات كلمات تزيل هذا الغضب ، ثم يعود إليها ويستخدم أساليبه الرقيقة لإرضائها حتى ترجع عما عزمت عليه .

وتقلب سعدمع الحرفاء حتى انتصف النهار ، فلم ينهض إلى المنزل وظل حتى غابت الشمس وأحس بشدة الجوع ، وعرف أن أمه قد أحست

بمثل ما شعر به ، وأن هذا الوقت هو الذى يحسن فيه الحديث معها عن الطعام والشراب ، لعلها تجيب أحشاءها وتطرد شيطانها ، فأسرع إلى البيت ووقف أمامها فى بشاشة ثم قال فى رقة وهدوء :

— كيف حالك يا أماه ؟

— لم أعد أملك ، فأنت على دين وأنا على دين !

— ديننا يدعو إلى المحبة وينهى عن القطيعة ، فهل تودين أن تعرفى شيئاً عنه ، فربما فضلته على الدين الذى لا يعيب الخصام ولا يكره الفرقة ؟ !

— لا أود ، خلّ دينك لك !

— لا بد للإنسان من البحث والتأمل يا أماه حتى يحكم على بصيرة !

— لست على استعداد للحديث معك حتى تزهق روحى ، وقد أوصيت ألا تشيع أنت جنازتى .

وأمسك سعد برأس أمه وجعل يقبله مستعطفاً قائلا فى حنان :

— ومن الذى يمنعنى عن تشييعك يا أماه ؟ ! لم أكن أظن شيئاً فى الحياة يفرق بين قلب سعد وقلب أم سعد !

فدفعته المرأة عن رأسها صائحة :

— دينك هو الذى فرق بين قلب سعد وقلب أم سعد، إنك تريد أن تكون ملك الفرس ، وأنا لا أحب أن أكون أم الملك .

ـ وماذا يضيرك يا أماه ؟ !

ـ كفى سخرية يا سعد ، فقد امتلأ البيت منذ الصباح بنساء قريش جئن يهنئن بذلك الملك ، حتى كدت أذبح نفسى لسخريتهن اللاذعة ، وقد أرسل خالك أبو سفيان امرأته تكيل هذه السهام إلى صدرى ، فتمتع أنت بقمرك وملكك ، ودعنى أشرب كأس الموت فهى بخير عندى من كئوس السخرية ، اتركنى أختنق من الحياة ، حتى لا أشهد بقية المأساة التى ستحل بك أنت ومحمد وأصحاب محمد .

ولم تفارق الفتى ابتسامته وتلطفه وقال فى هدوء :

ـ وما ذنب أحشائك التى يفتك بها الجوع ؟ ! وما ذنب الطعام حتى تقاطعيه ، ارحمى نفسك وكلى واشربى ، ودعينى فى ضلالى إذا لم تطب نفسك بالإيمان .

فزفرت المرأة زفرة تكاد تلتهب ، وهزت رأسها فى بطء لأن الجوع قد نال منها ، ثم صاحت فى نبرات متقطعة : « وتقول النساء فى مكة أم سعد لم تستطع أن ترد ابنها عن غيه ؟ ! » واشتد بها الغضب وتمثل أمامها جماعة من النساء يسخرن من عجزها عن طى ابنها ورده عن طريقه ، وتكلفت أن تظهر قوية لم ينل منها الجوع ثم صاحت : « سأموت يا سعد ، سأموت وأترك لك خزى الأبد ، سأصمك بعار لن ترفع رأسك بعده ، سأموت ويقول الناس إذا رأوك : هذا قاتل أمه ،

وليس عندى لك إلا إحدى اثنتين ، أن ترجع عن دينك أو تستعد لارتداء ثياب الخزى الذى يلفك ويلف عقبك إلى الأبد » .

وحاولت المرأة النهوض فثقل عليها فجذبت نفسها بقوة . ثم سارت ترنح حتى بلغت مكاناً بعيداً ، وجلست قليلا ، ثم نهضت مرة أخرى وسارت إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب .

أول المعركة

أقبل أبو سفيان بن حرب ذات يوم على منزل أبى وقاص والغضب يتفجر من وجهه ، وكان معه رجل معصوب الرأس بعصابة مبللة بالدماء، فهبت أم سعد فى دهشة لمنظره ومنظر رفيقه ثم صاحت فى عجب :

— كفيت السوء يا ابن حرب ! ماذا بك ؟ !

— ليس بى يا حمنة ولكنه أول المعركة !

— بين من يا أبا سفيان ؟ !

-- بيننا يا حمنة! هذه جناية ابنك، وعليك وعلى مالك بن وهيب زوجك غرم هذا العدوان !

ونظرت المرأة إلى العصابة التى التصقت بقرار الجرح فزاد عمقه ظهوراً ، ثم صاحت فى دهشة :

ـــ جرح بالغ يا أبا سفيان !

ـــ وجرح بالغ يا حمنة فى قلوب قريش ، حفره محمد بن عبد الله وراح أتباعه يعمقونه ، وقد بدأ ابنك فشج ابن خطل وأعلن بدء المعركة !

ومد ابن خطل يده ووضعها على العصابة فوق الجرح . وأخذ يمسح باليد الأخرى ما سال من الدم على وجهه . وأبو سفيان يضرب كفاً بكف والشرر يقدح من عينيه . يلتفت حوله كأنه يبحث عن ضالة فى البيت . ولم تزد المرأة أن قالت فى ابتسامة هادئة :

ـــ ومن الذى بدأ العدوان يا ابن خطل ؟

وقبض أبو سفيان أصابعه كأنه يتأهب لتسديد ضربات قوية . وضغط فكيه فصرتا صريراً عالياً . ثم انفجر صائحاً : « أنحن فى حكومة يا حمنة ؟ ! لم نأت إلا لننذرك وننذر أبا وقاص بالخطر المحدق بكما إن لم تكفا سعداً عن عدوانه . وترداه عن الطريق الشائك الذى سار فيه مع الصابئين من أتباع محمد » . فزادت ابتسامة المرأة انفراجاً ثم قالت فى هدوء : « هون عليك يا ابن حرب فسعد عاقل لا يبدأ بالسوء » .

ـــ ولكنه بدأ يا حمنة !

ـــ لست أظن يا ابن عم . لكن سعداً لا يحتمل أن يساء ولا يصبر على أذى . أنت تعرفه ومكة كلها تعرفه يا أبا سفيان !

ومدت المرأة يدها وربتت كتف ابن خطل قائلة : « أليس كذلك يا عبد الله ؟ » . وتأكد أبوسفيان من لهجتها أنها رضيت عن ابنها وتركته فى طريقه ، فهز رأسه ثم صاح فى سخرية : « أرضيت عن دين محمد يا حمنة ؟ ! كاد القوم يفتكون بابنك ، لكنهم تركوه من أجل خاله ! » فصاحت المرأة فى غضب :

— وهل سعد ضعيف يا أبا سفيان ؟ ! فليحمد ابن خطل له أن اقتصر على شجه !

— أكان يقتله يا حمنه ؟ !

— ومن الذى كان يدفعه يا ابن حرب ؟ !

واشتد الغيظ بأبى سفيان ورفيقه ، وكاد يمد يده ليبطش بابنة عمه ، لكنه تجلد ، وجذب ابن خطل وهم بمغادرة المنزل ، فأسرعت أم سعد تخفف من ثورته ، وصاحت فى ابتسامة رقيقة : « أغضبت يا أبا سفيان!؟ وهل يغضبك أن يكون ابن أختك شجاعاً يقهر الخصوم ؟! لقد أخفيت عنى سبب هذا العدوان ، ولست أدرى كيف أثبت لسعد خطأه ! ولعل الحادث قُص عليك فأخذتك عزة قريش ! » ومدت يدها إلى رأس ابن خطل وأخذت تحل العصابة وهى تقول فى هدوء :

— وأين حدث ذلك يا ابن خطل ؟

— فى شعاب مكة يا حمنة !

ـــ كانوا يصلون ؟

ـــ كانوا يعبثون ذلك العبث الذى علمهم إياه محمد، يقومون ويجلسون ويرفعون أصواتهم بالسحر الذى لقنهم إياه .

ـــ ذهبوا فى خفية يا عبد الله ؟

فرفع الرجل رأسه والمرأة تفك العصابة ، ونظر إلى أبى سفيان ثم قال فى صوت ثائر : « فى خفية عمن يا حمنة ؟ ! إنهم يحاولون الاختفاء، لكنا لهم بالمرصاد أينما ذهبوا ! » . ونظرت المرأة إلى أبى سفيان ثم صاحت فى حزم : « أرأيت يا أبا سفيان ؟ !! أفى ذلك عيب أو خطر ؟ ! قد آثروا ألا يراهم أحد ! »

ـــ ولكن الناس يعلمون بأمرهم وسيكونون قدوة لغيرهم !

ـــ ولا خطر فى ذلك يا ابن حرب ، كل امرئ حر فى رأيه ما دام لا يؤذى به أحداً .

وحملق أبو سفيان فى وجه أم سعد ثم صاح فى غضب :

ـــ حر فى رأيه ؟ ! ظهر عليك سحر محمد يا حمنة ! كنت بيننا بطلة حين ثرت على ابنك وتركت الطعام والشراب ، لكنا اليوم سنضمك إلى قائمة الضلال ، وقد فتحت قريش أعينها على شر محمد وأنصار محمد ، وستكونين مع ابنك فى النيران التى سنوقدها لهؤلاء الصابئين !

وحاولت المرأة أن تجيب أبا سفيان على هذا التهديد ، لكنه جذب ابن خطل وغادر المنزل يهدد ويتوعد .

وراء البحر

صارت مكة فى شغل شاغل بمحمد ودين محمد ، فلا يصبح الصباح حتى يسرع رؤساء قريش إلى المعركة المشتعلة بينهم وبين المؤمنين ، وتسير مواكب ساخرة تزف المستضعفين إلى مواضع من الصخور تستوى عليها أشعة الشمس فتشعلها ، ثم يطرحون هؤلاء الضعفاء فوقها ، ويصبون عليهم سياطهم الملتهبة ، وثغورهم تفتر سروراً بمنظر الدماء المتفجرة من أجسادهم ، وثغور أولئك المعذبين تفتر سروراً بذلك التعذيب فى سبيل الله ؛ وأصبحت الأبواب تدق على من خلفها من الضعفاء الذين لا ناصر لهم ، فيؤخذون كما تؤخذ زغب العصافير ، ويسحبون إلى تلك الصخور الملتهبة والسياط القاتلة ، وكانت أفواج كثيرة قد دخلت فى دين الله من قريش ومن الأرقاء الذين رأوا فى الإسلام خلاصاً من ذل الرق ، ووجدوه دين إخاء ومساواة لا فرق فيه بين عربى ولا عجمى إلا بالتقوى ، وكانت درة قد آمنت بالرسول إيماناً خالصاً . وكلما آذاه قومه زاد اعتقادها فى رؤيا الموبذان ، وودت لو تدفع الأيام فيأتى ذلك اليوم الذى تقود فيه الإبل الصعاب الخيل العراب ، وتكون هى فى موكب النصر والفتح ! .

أوى سعد إلى حجرته ذات مساء وألقى رأسه بين راحتيه ، وأطرق يفكر فى أمر هؤلاء القساة الذين سفكوا دماء المؤمنين ، وقاطعوا التجار منهم حتى كسدت تجارتهم ، وأخافوا وتوعدوا ، وسبح به الفكر فيما تتفتق عنه أذهانهم ، حتى انتبه على صوت درة تستدعيه إلى أبيه أبى وقاص ، فهب وفى عينيه بقايا ذلك التفكير العميق ، وسلم ثم جلس ، فنظر إليه أبوه فى حنان ، ثم قال فى صوت خافت :

ــ على أى شىء عزمت يا سعد ؟

ــ فى أى شىء يا أبتاه ؟ !

ــ ألم تعزم على الرحيل معنا ؟ !

ــ إلى أين يا أبتاه ؟ !

ــ إلى أين ؟ ! كأنك لم تعزم على الهجرة ! عزمت أنا وأخوك عامر على الرحيل إلى الحبشة فاستعد لتهاجر معنا .

وصمت أبو وقاص ، وصمت سعد وفى عينيه دمعتان مترقرقتان ثم قال فى صوت مختنق :

ــ وأترك رسول الله يا أبتاه ؟ !

وأعاد أبو وقاص النظر إلى ابنه ، ثم قال فى حنان : « رسول الله محفوف برعاية الله ورعاية عمه أبى طالب ، ولن تستطيع قريش أن تصل إليه ، أما نحن فأيديهم قريبة منا ، فقد نسوا كل قرابة ، وأنكروا كل

صلة ، ولن يرد جمعهم راد إذا اتجهوا إلينا ! ». فقال سعد فى ثقة :
ــ أتخاف الموت فى سبيل الله يا أبتاه ؟ !

ــ لا يا بنى ، ولكن رسول الله قد أذن بالهجرة ليحتفظ بأنصاره بعيداً عن أيدى هؤلاء الجبارين حتى يأتى أمر الله ، وقد علم رسول الله أن قلوب البقية قد تحجرت فهو لا بد مهاجر وتارك لهم مكة يا سعد ، هيا يا بنى معنا فقد سبقنا كثير من المؤمنين واستعد الباقون ، هاجر عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ، ورحل جعفر بن أبى طالب وامرأته . . . هيا يا سعد لنخفف عن رسول الله عبء التفكير فى أمرنا ، ولتكون هجرتنا فرصة يخرج بها دين الله من مكة التى ضاقت به إلى آفاق الله الفسيحة ، هيا يا سعد فقد أذن الرسول ! .

وأطرق سعد واطمأن والده إلى أنه قد أقنعه ، وترقبت دره ما سيقرره سيدها ، ولكن سعداً رفع بصره إلى أبيه وقد بللت الدموع وجنتيه . ثم قال فى صوت مختنق بالعبرات :

ــ تصحبك السلامة يا أبتاه وفى رعاية الله ! أما أنا فلن أترك رسول الله ، سأظل معه ، سأحيا معه وأموت معه ! .

وأصبح الصباح والمهاجرون فى طريقهم إلى البحر ، وسعد عند رسول الله يسمع آيات الله ويتلقى تعاليم الإسلام ، حتى إذا انقضى اليوم عاد إلى بيته ليستأنف يوماً جديداً بجانب الرسول . والمشركون ماضون فى التنكيل

بمن تصل إليه أيديهم ، يخترعون كل يوم شراً جيداً يلحقونه بالنبي وأصحابه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يفكروا فى قتله ، حتى كان ذات يوم تحسسوا أيديهم فألفوها قادرة على أن تمتد إليه . فقد مات عمه وناصره ، فأداروا بينهم أمراً يطفئون به هذا النور ، ويعيدون به مكة إلى ما كانت عليه من ظلام وضلال .

أرض النخيل والزرع

جلس أصحاب رسول الله يستمعون آيات القرآن وعيونهم تفيض بالدمع مما عرفوا من الحق ، ثم تعالى شهيق بعضهم ندماً على ما فرط فى جنب الله وخوفاً مما قدم قبل الإسلام ، وانطلقت أفواههم بالاستغفار والتوسل إلى رب الكون ليصفح عما مضى ، ورسول الله يبشرهم بالغفران والرحمة . ولم يكن هؤلاء المؤمنون يفكرون فيما جر عليهم إيمانهم من جوع بعد شبع وعرى بعد اكتساء ، بل كان همهم حماية رسول الله والوقوف بينه وبين السيوف التى توشك أن تمتد إليه ، بعد ما اخترق الإسلام الحواجز ووثب إلى يثرب ، واعتنقه كثير من أهلها وبايعوا الرسول على أن ينصروه ويدافعوا عنه كما يدافعون عن أنفسهم وأبنائهم ، ونظر رسول الله إلى أصحابه ذات يوم وقلب بصره فى ثيابهم الممزقة وعيونهم الغائرة ، وأجسامهم

التى أضمرها الجوع وأنضاها العبادة ، ثم قال فى ابتسامة لطيفة :

ـ إلى أرض النخيل والزرع أيها الصابرون ، إلى يثرب يا سعد !

وعلم سعد ابن أبى وقاص أنه الإذن بالهجرة فأطرق مفكراً ، وعرف الرسول ما يتردد فى صدره فقال فى حنان :

ـ حتى يشاء الله يا سعد ، لا تخف فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

كان الليل يلف مكة بردائه القاتم ، وجبالها ترتفع فى وسط الظلام كأنها تراقب الغادين والرائحين ، وسعد يتسلل بأهله ، حتى صار على ظهر الطريق إلى يثرب ، فأدار وجهه ليملأ عينيه من مكة ، ويصلهما بالمكان الذى لا يزال فيه رسول الله ، ثم وقف وهم أن يعود ويظل بجانب الرسول حتى يهاجر معه أو يموت دونه ، فإذا بصوت رقيق يناديه :

ـ أين ياسيدى ؟ ! قد أذن الرسول والله حافظه !

ـ لكن أمراً خطيراً يتلجلج فى صدور المشركين يا درة !

ـ ورعاية الله سياج لا ينفذ منه كيد المشركين يا سيدى !

ووقف سعد وألقى بصره فى الأفق الممتد أمامه حتى بلغ سفح الجبل ، فخيل إليه أنه الجبل الرابض حول الكعبة وقد وقف يشهد سيوف المشركين وهى تنفذ ما بيت الكافرون للرسول فصاح فى قوة :

ـ سأعود إلى مكة ، وسأتوسل إلى الرسول ليأذن لى بالبقاء معه حتى يهاجر .

وهم سعد بالعودة ، لكن درة صاحت متوسلة :

ـ قد أذن لك الرسول ياسيدى اليوم ، وأذن لغيرك قبلك حتى لا يبقى بمكة سواه فيهاجر مطمئناً على أصحابه ، وما دام هو فى مكة فقريش فى شغل به عن أنصاره ، وهكذا يصنع القائد الحكيم ، يكون أول من يتقدم وآخر من يجلو ، توكل على الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولا أظن الرسول يبطئ بمكة يا سيدى !

ووقف سعد وأعاد النظر إلى مكة والدموع تملأ عينيه ، ثم لوى وجهه واعتدل فى الطريق الشمالى سائراً إلى أرض النخيل والزرع ، يرفعه نجد ويخفضه وهد ، تسرع به الإبل وتبطئ ، لا يعلم كم قطع ولا أين انتهى ، فقد كان جسمه يسير وقلبه فى مكة حول الرسول ، حتى قارب المدينة فإذا بأصوات تنبعث من جانب الطريق فى لهفة :

ـ كيف رسول الله يا سعد ؟ !

وقبل أن يتبين مصادر هذه الأصوات انطلق فى سرعة :

ـ رسول الله بخير ! رسول الله فى رعاية الله !

وكان الأنصار والمهاجرون الذين سبقوه يخرجون كل يوم مع الشروق إلى ظاهر المدينة ينتظرون الرسول ، فلما ـ رأوا سعداً صاحوا به وأسرع

المهاجرون يعانقونه ، وتقدم الأنصار يرحبون به ويعرضون منازلهم وأموالهم . ثم ساروا إلى المدينة وقضوا ليلتهم حوله يسألونه عن الرسول وهو يطمئنهم ، حتى إذا أصبح الصباح خرجوا يترقبون ؛ وما زالوا إلى أن أذن الله للمدينة بالخير فأقبل النبي مع صاحبه أبي بكر ودخل المدينة فى موكب المحبة والإخلاص ، ونشيد رقيق يتردد من أفواه المؤمنين ، يرحب بالبدر الذى طلع عليهم من ثنيات الوداع ؛ وكانت درة تنشد معهم فياضة الفرحة ، قد امتلأ قلبها ثقة بتحقيق بشارة الرسول بعد ما أحبط الله كيد المشركين . وأصبح لدين الله وطن يحنو عليه ويذود عنه ؛ وصار فى الجزيرة قوتان كبيرتان ، قوة الشرك الثائرة فى مكة تود أن يهيأ لها يوم النزال السريع فتضرب المدينة ضربة قاصمة ، وقوة الإيمان الرابضة فى المدينة فى شوق إلى لقاء المشركين وانتزاع أفئدتهم القاسية التى أخرجتهم من ديارهم وأموالهم ، وفى لهفة للقضاء على اليهود الذين امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد ، وجاهروا بالعداء لمحمد ودينه وأصحابه .

كانت درة قد بلغت مبلغ النساء ، ورغب كثير من المسلمين أن تكون زوجًا له ، لأدبها وذكائها وشدة إخلاصها لدين الله . لكنها كانت تعتذر كلما طلب أحد يدها ، وتعلن لمولاها أنها عقدت العزم على ألا تتزوج ، لأن فى عبادة الله ما يشغلها عن التفكير فيما يفكر فيه أمثالها . وكان سعد لا يقتنع بهذا التعليل ، يوقن أن فى صدرها شيئًا

يحول بينها وبين الرضا بمن تقدموا إليها . فحاورها ذات يوم فى ذلك الرفض ، وقال لها وهو يحاورها مداعباً :

ــ قد اخترنا لك زوجاً من قومك يا درة !

فاغرورقت عينا الفتاة وزفرت زفرة شديدة ، ثم قالت فى حزن :

ــ قد يكون هو يا سيدى ! ولكن كيف جاء ؟! وأين يكون ؟!

وأسرعت الدهشة بسعد فصاح فى لهفة :

ــ ومن يكون ذلك الرجل يا درة ؟!

ــ ابن عمى يا سيدى ، عقدنا العقد صغيرين ، عقده أبى وأبوه وأمى وأمه ، ورضيت به فأصبح رضاى عهداً لا أستطيع التحلل منه وإن طالت الأيام !

فقهقه سعد قهقهة عالية ثم قال فى نبرات رقيقة :

ــ عقد طفولة يا درة ! أترين أنه يستمر إلى اليوم ؟!

ــ بل عقد صحيح ثابت يا سيدى ، برضا وإدراك وبصر !

وسر سعد باعتزاز الفتاة بنفسها ، وثباتها على رأيها وقال باسماً :

ــ لكن ابن عمك إن وجد فسوف يكون غير مسلم ، والمسلمة لا تحل لغير المسلم يا درة !

ــ أرجو أن يسلم يا سيدى ، فأملى كبير فى تحقيق بشارة الرسول .

وصمت سعد قليلا ، وصمتت الفتاة ، ثم قال فى رفق :

— لكنا لا ندرى أين هو يا درة ، ولا نعرف متى نلتقى به ، ولا نستطيع أن نجزم بأنه لا يزال ينتظرك كما تنتظرينه ، ولعله قطع الأمل من لقائك بعد ما كبر ! فتزوج !

فازدحمت الدموع فى عينى الفتاة ثم قالت فى أمل :

— إنى لعظيمة الثقة بالله يا سيدى ! وإذا ما سارت الخيل العراب إلى فارس فسوف نلتقى به !

ولم يستطع سعد أن يحولها عن رأيها ، فصاح فى دهشة لثباتها على ظنها :

— وأنى لنا ببلادك اليوم يا درة ؟ ! ألا ترين القوى الصارخة من حولنا ؟ زئير فى مكة ، وزئير فى الجزيرة ، وعواء ينبعث من حصون اليهود ! .

فهزت درة رأسها وملأت شفتيها بابتسامتها الرقيقة ثم قالت فى هدوء :

— كل ذلك سيخفت يا سيدى ، قد بشر الرسول ، وسيحقق الله بشارته ، ويحفظ دينه ، ويحرس قرآنه ، وستقود الإبل الصعاب الخيل العراب ، فأبق الزواج اليوم حتى أخوض المعارك بجانب الحق ، وسألتقى بأهلى وأفى بعهدى وإن طالت الأيام .

وطرق الباب فإذا برسول النبى صلى الله عليه وسلم يدعو سعداً فى سلاحه ، فلبس درعه ، وتقلد كنانته ، وشد كفه على مقبض سيفه ، وأسرع مردداً فى سرور :

— لبيك يا رسول الله ، لبيك يا رسول الله !

الفتى الحزور[1]

عاد سعد بعد غزوة مع رسول الله ، ولم يستقر به المقام حتى خرج فى غزوة أخرى يحمل لواء الرسول ، ثم عاد ليخرج قائدا لسرية من السرايا التى أخذت تجوس خلال الجزيرة . والمشركون فى مكة ثائرون يفكرون كيف يلتقون بمحمد ويطيحون بدينه ؛ ويريحون أنفسهم من المسلمين الذين اشتد بأسهم ، وأصبحوا يعترضون قوافلهم ويخيفون طرقهم ؛ حتى نادت المشركين مصارعهم ، وأسرعت هاماتهم إلى سيوف المسلمين لتلقى جزاء العناد والكفر ، فقد خرج الرسول وأصحابه ليعترضوا قافلة لقريش كانت عائدة من الشام بتجارة عظيمة ، وعلمت مكة فأسرعت فى عددها وعددها لتنقذ القافلة . وتؤدب محمداً . وتخمد جذوته قبل أن تشتد، وسالت الأودية بجيشها الصاخب الغاضب حتى بلغ مكاناً قريباً من المدينة يسمى بدرا ، فالتحمت قوة الحق بقوة الباطل ، وتقدمت الفئة القليلة بسيوف الإيمان إلى الفئة الكثيرة المزهوة بالعدد والعدد ، وجال سعد ورمى بسهامه . ونظر الله إلى هذه السهام المندفعة بقوة اليقين ، وإلى تلك السيوف التى ترتفع مع اسم الله وتنخفض مع ذكر الله ، فثبتها

(١) القوى الناضر .

فى قلوب المشركين ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وانتثرت رءوس الشرك على أرض بدر ، وامتدت أيدى المؤمنين إلى الباقين تقودهم أسرى كما تساق الأنعام ، ثم عاد رسول الله وأصحابه بالغنائم والأسرى ، يلفهم التكبير والحمد ، وعاد سعد إلى بيته فرحاً بنصر الله وبما أبلى فى سبيل الله ، وأقبلت عليه درة تهنئه باقتراب وعد الله وتحقيق بشارة رسول الله ، وكان عليه جبة قديمة ملطخة بالدماء ، فخلعها فى عناية ، ولفها لفاً محكماً ثم وضعها فى حرز وربط عليه وصاح فى سرور :

— احفظى هذه يا درة ، واجعليها معنا فى الحل والترحال .

— وما هذه يا سيدى ؟

— شىء له أوان يا درة ، احفظيه حتى يحين أوانه .

وجلل مكة سواد قاتم لما حل بعظمائها الذين خلفوا قتلى فى صحراء بدر ، وأسرى فى المدينة ، وسار القرشيون بعضهم إلى بعض يتآمرون فى خزى وحزن ، ثم اتفقوا على أن يبادروا بالثأر ليستردوا ما حطم محمد من شرفهم ، وتفرق دعاتهم فى الجزيرة يحرضون القبائل ، ويخوفونها شر المسلمين ، ويثيرونها على الرسول ودينه ، حتى جمعوا منها جموعاً كثيفة وأسرعوا بها إلى المدينة ، يحثهم الغضب ويدفعهم الغيظ والانتقام .

والتقى الكفر بالإيمان مرة أخرى على أرض أحد فى ظاهر المدينة ، واندفع المشركون إلى المؤمنين فى ضراوة ، لكن السيوف التى أطاحت

برءوسهم فى بدر ، تقدمت إلى هاماتهم تحصدها وتلقيها على أرض أحد لتطأها الأقدام وتفريها سنابك الخيل ، فولى المشركون يتحسسون صدورهم وأعناقهم ، وظن رماة المسلمين الذين يحرسون الجيش من الخلف أن المعركة قد انتهت فتركوا مواقعهم وأقبلوا على الأسلاب والغنائم ، وأبصر المشركون ظهر المسلمين خالياً فالتفوا حولهم ورجع الفارّون منهم ، ودارت المعركة حامية قاسية فتساقط المسلمون وتعالى صياح الكافرين ووجهوا هجومهم إلى الرسول ، ولكن أصحابه التفوا حوله فى نطاق متين يتلقون عنه الضربات ويفدونه بأرواحهم ، وهو يشجعهم ويحثهم على الصبر ، وصوته يرتفع فى قوة :

— أقدم يا سعد يا ابن أبى وقاص ! أقدم أيها الفتى الحزوّر !

ياويل سعد إن لم يمتْ دون رسول الله !

هكذا كان سعد يصيح وسهامه تنطلق إلى صدور المشركين ، ونداء رسول الله نشيد يسرع من أذنيه إلى قلبه فيلهب حماسته ، والرسول فرح به ، يرى مواقع سهامه فيشجعه ، ويناوله السهم بيده صائحا به :

— ارم يا سعد ! ارم فأنت موفق ! ارم فداك أبى وأمى !

يفدّينى رسول الله بأبيه وأمه ؟ ! يا ويل سعد إن لم يمت دون رسول الله !

وهكذا أخذ سعد يصيح وسهامه تندفع ، والمشركون يبحثون عن

الرسول ، والمؤمنون يناضلون حتى ردوا عنه تلك القوة العاتية .

ورأى المشركون ما حل بالمؤمنين وأنهم ثأروا ليوم بدر ، فكفوا شامتين ثم انصرفوا مهددين بعودة أخرى يقضون بها على المسلمين القضاء الأخير .

عاد رسول الله وأصحابه إلى المدينة وقد خلفوا فى بطن أحد أعزة عليهم ، وذهب سعد إلى بيته يضمد جراحه ، ويعد سلاحه ، ويتأهب لمواصلة الكفاح . فقد أمر الرسول بالخروج من الغد حتى لا يظن الناس بهم ضعفاً بعد أحد ، واستجاب له أصحابه وخرجوا إلى غزوهم ثم عادوا ظافرين ، ثم انطلقت جيوشهم فى الجزيرة . تطلع عليها الشمس غازية وتغرب عليها منتصرة ، حتى فتحت مكة وحطمت الأصنام . وتأكد العرب ألا قوة لهم أمام قوة الإسلام ، فأقبلت وفودهم من كل صوب تعلن الإيمان ، وتؤكد انضمام قبائلها إلى حوزة الجماعة التى وحدها الدين القويم ، وصارت الجزيرة كلها تكبر الله وتصلى له ، ثم سارت كتب الرسول إلى ملوك الأرض تدعوهم إلى دين الله وتبلغهم رسالة رسول الله . وتنذرهم بالحرب إن لم يستجيبوا لداعى الحق ، وطار بدرة الفرح فقد اقتربت الأمانى ودنت الآمال ، وبشرت الآفاق بانبعاث الإسلام خارج الجزيرة ، وبدا فى خيال درة صورة الإبل الصعاب تقود الخيل العراب . لكن رسول الله قد نودى من السماء فاختار جوار الله ، وقام صديقه أبو بكر بالأمر بعده فشمر للعمل واستعد لنشر دين الله ، ولكن أمر المسلمين لم يلبث

أن انقضى ، وثارت الجزيرة تمزق الوحدة التى جمعها الإسلام ، وغدت المدينة فى ذعر شديد ، واعتقدت درة أن أملها قد تحطم ويئست من رؤيا الموبذان ، وأذهلتها الصدمة فنسيت بشارة الرسول .

أمير الجيش

نهض أبو بكر لحرب المرتدين ، وعقد الألوية ووجهها إليهم ، فأخذت تضربهم بقوة الله حتى ردتهم إلى الجماعة ، ثم أمر جيش اليمامة الذى هزم مسيلمة الكذاب فى شرق الجزيرة أن يسير إلى العراق فالتقى بالفرس ، وفل جموعهم الكبيرة وسار إلى الحيرة ، وكان الفرس فى نزاع على الملك ، فرأى قائد المسلمين أن يتقدم داخل بلادهم ويزيل دولتهم ، وأقبل إلى المدينة ليستأذن الخليفة . وكان أبو بكر مريضاً فاستمع إليه ، وود لو ينهض بنفسه يندب الناس إلى العراق ، ثم دعا عمر الخطاب الذى اختاره خليفة بعده ، وأوصاه أن يكون أول عمل له تسيير الجيوش إلى فارس ، وألا يتمهل بعد أن يواريه التراب .

كان سعد بن أبى وقاص فى بلاد هوازن القريبة من مكة ، عاملا على الصدقات ، مهتماً بجيوش المسلمين المنتشرة ألويتها فى المشرق والمغرب ؛ وكانت درة معه فى تلك البلاد موزعة الفؤاد ، لا تدرى ما انتهى إليه أهلها

فى تلك الحروب الطاحنة ، تهم باستئذان سيدها لتلحق ببلاد ها فيحبس الكلام فى فمها ، وسيدها يعلم ما يدور فى صدرها ويشفق عليها ، ويعز عليه أن يرسلها مع بعض الذاهبين إلى تلك البلاد .

وكان أمر الفرس قد استقر لبنت من بنات كسرى تسمى بوران ، فشمرت لحرب المسلمين ، واستدعت قائداً كبيراً من قواد الفرس يسمى رستم وألقت إليه أمر البلاد وإنقاذها وطرد العرب منها ، ووضعت فى يديه سلطاناً كبيراً حتى ينجح فى مهمته القاسية ، فاختار قائداً ماهراً وجمع جيشاً كثيفاً خرجت الملكة لتوديعه واثقة من النصر ، ثم سار هذا الجيش فى زهو يخترق المدن والقرى حتى بلغ المسلمين والتحم بهم ، لكن سيوف المؤمنين التى ذاقت رقاب الفرس انقضت عليه ومزقته وقتلت قائده ، وتركت فلوله تعود لتخبر رستم بالخبر الحزين ، فاستشاط غضباً وأسرع بإرسال جيش آخر وقائد أمهر ، لكن المسلمين عرفوا مقاتل الفرس فمزقوا هذا الجيش كما مزقوا سواه . وتركوا من بقى منه ليعود إلى رستم يشكو النيران الملتهبة فى سيوف المسلمين وأسنة رماحهم ، ويوقع الجزع فى القلوب وهو يفر مسرعاً شاكياً ، وانبعث المسلمون يخضعون البلاد ، واشتدت غاراتهم حتى بلغت المدائن عاصمة الفرس على شاطئ دجلة .

وكان الفرس لا يزالون يتنازعون على العرش ، لكن الخطر أيقظهم وعلموا أن الفرقة ساعدت الجيوش الغازية على النصر ، فاجتمع الشعب

وسار إلى المتنازعين صائحا مهدداً ، متوعداً المختلفين بالتمزيق إن لم يثوبوا إلى رشدهم وينبذوا الخلاف ، ويتعاونوا لإنقاذ البلاد .

ليس إلا واحد يجمع القوى المتنافرة ! ملك من أبناء كسرى ينضمون تحت لوائه، ولكن أين ذلك الملك ؟ ! لقد قتل أبناءكسرى جميعاً فى نوبة التنازع والخوف والشك!

واهتزت الرءوس تنفض ما فيها من الأخبار ، وتتذكر الأكاسرة وأبناءهم ، حتى عثرت على ولد فى الحادية والعشرين يسمى يزدجرد كانت أمه قد أخفته عند أخواله فأقاموه ملكاً ، واجتمعوا على الطاعة له ، وأخذوا يستعدون يداً واحدة وقلباً واحداً لتخليص البلاد وطرد العرب .

وعلم قائد المسلمين بما أجمعوا عليه ، وكتب به إلى الخليفة عمر ، فلما وصله الكتاب صاح فى ثقة :

يجتمعون أو يتفرقون ! والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب !

وسارت كتب عمر إلى عماله فى الجزيرة لينـدبوا إلى القتال كل قادر ولا يدعوا من له نجدة أو سلاح أو رأى إلا وجهوه إليه . فاجتمعت النجدات ، وماجت المدينة بالمحاربين الشجعان، وخرج بهم عمر إلى مكان قريب من المدينة على طريق العراق ليسير بهم من هناك ، لكن أصحابه أشاروا عليه بالبقاء وإرسال قائد ماهر من أصحاب رسول الله ، فإن كان الذى يشتهى فهوالفتح ، وإن كان غيره أرسل قائداً آخر وظل بعيداً

عن الهزائم يجند الجنود ويمدها بالرأى ، فاقتنع عمر وجمع الناس وصاح فيهم :

ـ أيها الناس ! كنت عزمت على المسير معكم . لكن ذوى الرأى منكم صرفونى عن عزمى وآثروا أن أبقى بالمدينة أمدكم بالمدد والرأى . وأمر المسلمين شورى بينهم ، ليس لعمر ولا لغير عمر أن يستبد به . وقد رأيت ذلك الرأى ، وآثرت أن أقيم وأبعث رجلا ، فأشيروا علىّ برجل .

وتلفت المسلمون يبحثون عن القائد الماهر الذى يقود المسلمين أمام جيوش الفرس العاتية . فإذا بكتاب إلى عمر من أحد عماله ، فقرأه وسر بما فيه . وآثر أن يقرأه على الناس ليشد عزمهم ، وكان هذا الكتاب من سعد بن أبى وقاص ، ينبىء الخليفة أنه انتخب له ألف فارس كلهم ذوو نجدة ورأى . ولم يتم عمر الرسالة حتى انبعثت الصيحات فى قوة :

ـ وجدته يا عمر وجدته !

وصاح عمر يسأل من يكون هذا الذى وجده ؟ فترددت الأصوات فى ثقة :

ـ هو الأسد عادياً ، سعد بن مالك ، خير من يقود جند الله ويحبط خطط الأعداء .

وهز عمر رأسه باسماً لأنه وجد الحل الذى أرضاه . ثم أسرع بالكتابة إلى سعد يستقدمه ، وكانت درة قد فاض بها الشوق لأهلها والخوف عليهم ، فجمعت شجاعتها ودخلت على سيدها لتستأذنه فى المسير إلى العراق ،

فرأت فى يده رسالة يطيل فيها النظر باسما ، ثم رفع بصره فوجدها أمامه فزادت ابتسامته انفراجاً ، ثم قال فى هدوء :

ـ ما ذا جاء بك الساعة يا درة ؟ !

ـ لا شىء يا سيدى ولكن !

وخانت الفتاة شجاعتها كما تخونها كلما همت باستئذان سيدها فصمتت ، لكن سعداً صاح بها فى سرور :

ـ كنت سأستدعيك يا درة لأمر يهمك .

ـ خيراً يا سيدى وبركة إن شاء الله !

ـ هو ما جئت من أجله الساعة يا درة .

وبرقت عينا الفتاة ، ونظرت إلى الخطاب الذى فى يده ، وظنت أن خبراً جاءه من العراق فصاحت لهفة :

ـ وجدت أهلى يا سيدى ؟ !

فتأثر سعد وصمت قليلا ، ثم قال فى رفق :

ـ سنجدهم بإذن الله يا درة ! سنسير لنجدهم . فقد اختارنى الخليفة قائداً لجيش العراق . وسأذهب إلى المدينة لأتلقى أوامره ثم نسير من هناك .

وكان سعد يتم حديثه ودرة ذاهلة ، حتى استعادت شيئاً من ثباتها ، ثم انصرفت لتخبر من فى البيت ليستعدوا ، وسعد يصيح بها فى سرور :

ـ لا تنسى الجبة يا درة !

سلاح فارس

أقبل سعد على المدينة النابضة بالحركة ، المهتمة بإعداد الجيوش ، وأسرع إلى الخليفة ، وجلس ينتظر أمره فصاح به عمر فى رضا :

ــ أجمع المسلمون عليك يا سعد !

ــ فضل من الله يا أمير المؤمنين ورضوان !

فأعاد عمر النظر إلى القائد الذى اختاره المسلمون لنزال الفرس ، ثم قال فى حزم :

ــ يا سعد بن مالك ! لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر واليقظة ، وتوكل على الله ، وسر على بركة الله ، وما النصر إلا من عند الله .

وسار سعد يدفعه الشوق إلى لقاء جنود الشرك ، ودرة فى سرور ، كلما لقيت سيدها ابتسمت صائحة : « البشارة يا سيدى ! » حتى قارب العراق

فعبأ جيشه ، ثم استأنف المسير حتى نزل بمكان يسمى القادسية ، على بحيرة وراءها مضيق من البر يفصل بينها وبين نهر الفرات ، ثم بعث سرية أغارت على الحيرة وغنمت كثيراً من الغنائم ومن بينها بنت مرزبان الحيرة ومعها عدد كبير من النساء ، فأسرعت درة إلى الأسيرات تنظر فى وجوههن فلم تجد أحداً من أهلها ، فخلت بواحدة منهن وأخذت تحدثها عن القافلة التى خطفت منها صغيرة ، وعن بيت أبيها إياس بن عمرو ومكانته وعظمته ، فأطرقت المرأة تفكر ثم صاحت فى دهشة :

ـ درة بنت إياس بن عمرو ؟ !

فتلاحقت أنفاس درة ، وبرقت عيناها ، وفغر فمها فى انتظار خبر عن أهلها ، لكن المرأة هزت رأسها وقالت فى صوت ملىء بالحسرة :

ـ دخلوا فارس يا بنيتى . وكان معهم فتى لا هم له إلا البحث عن درة .

فأجهشت درة بالبكاء ، وأرسلت لأفكارها العنان ، لكنها تذكرت قوة المسلمين وعزم سعد وبشارة الرسول ، فعادت الثقة إلى نفسها ، ومسحت دموعها آملة أن تجدهم فى فارس حينما تخوضها الخيل العراب .

كانت أخبار المسلمين وقوتهم وغاراتهم قد أقلقت الفرس ، فاستقدم يزدجرد أعظم قواده رستم ؛ وكان هذا القائد يعتقد فى الرؤيا ، وقد استيقظ صباح ذلك اليوم مفزوعاً مهموماً ، فقد رأى فى نومه أن ملكاً من الملائكة قد

نزل من السماء ومعه محمد نبي العرب وعمر بن الخطاب خليفته ، ثم جمع ذلك الملك سلاح الفرس كله وختم عليه وأعطاه للنبي ، فأعطاه بيده لعمر بن الخطاب ، وخاف رستم أن تكون دولة الفرس قد دالت على أيدى المسلمين ، وتذكر ما كان الموبذان قد رأى فى عهد كسرى أنو شروان ، وما منيت به جيوشه هو من هزائم قبل اليوم ، فزاد خوفه وعزم ألا يلقى العرب بنفسه. وجاء رسول الملك يدعو رستم فى ذلك الصباح ، وهو غارق فى تفكيره ، فزاد همه ودخل على الملك متكلفاً ألا يبدو فى شيء مما أهمه . لكن الملك لمح فى وجهه بعض ما يريد أن يكتمه فصاح به :

ـ أرى عليك دلائل الأرق يا رستم ! أقضيت الليل تفكر فى هذا الأمر التافه ؟ !

ـ أى أمر يا مولاى ؟ !

ـ الأمر الذى أهم الفرس ، ولا أراه بجانبك إلا شيئاً يسيراً فهم أكلتك فى ليلة !

فابتلع رستم لعابه ، وتكلف ابتسامة يشد بها على ما فى نفسه ، ثم قال فى هدوء :

ـ سيردهم أصغر قوادك يا مولاى فهم شيء تافه كما ترى ، وسأبعث إليهم من يأتيك برءوسهم فتعلقها بفروع الأشجار أو تلقيها فى جوانب الطرق فيعبث بها الأطفال !

فابتسم الملك وكان يعرف الخطر الرابض فى سيوف العرب ، ويعلم أن رستم يعرفه ، ثم قال فى هدوء متكلف :

— ولكن هوان الأعداء على مقدار من ينازلهم يا رستم ، يهونون على قائد مثلك ، ولا يقف لهؤلاء إلا المحنك الماهر ، ألم ترهم قتلوا كثيراً من مهرة قوادنا ؟ ! وقد علمت أن أميرهم عمر بن الخطاب قد رمانا بقائد قوى ماهر يسمى سعد بن أبى وقاص ، وليس لمثله إلا أعظم القواد يا رستم !

فقال رستم وهو يتكلف العزم :

— سأرسل من ترضى عنه ويرضى عنه الجيش يا مولاى !

وتأكد الملك مما فى صدر رستم فصاح فى حزم :

— هناك قائد واحد هو الذى يستطيع القضاء على هؤلاء العرب فى جولة واحدة ، ذلك القائد هو الذى سيرسل إليهم ، هو الذى سيلقى سعد ابن أبى وقاص !

وصمت رستم وأطرق يفكر ، ولاحت أمامه الرؤيا فاضطرب ، وخاف أن يلحظ الملك والوزراء اضطرابه فقال متكلفاً التجلد :

— ليس عندى ما يمنع من الذهاب يا مولاى ، لكنى أرى أن أكون بجانبك ، أدير المعركة من بعيد ، وأرسل إليها الجيوش ، فإن انتصرت وإلا بعثت غيرها والرأى فى الحرب أنفع ، والتأنى خير من العجلة ، فيذهب الجيش بعد الجيش والقائد بعد القائد ، ولدينا الأعداد الكثيرة ، فنأخذ من

قواتهم شيئاً فشيئاً ، ثم نهجم على البقية الباقية إذا لم تفر ونلقن العرب درساً لا ينسونه يا مولاى ، وسأبعث الجالينوس ، فإن يكن لنا النصر وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بدا صبرنا لهم وقد أنزلنا بهم الوهن ، ونحن فى بلادنا وهم بعيدون عن بلادهم . وإن أهل فارس لا يزالون يحترموننى ما لم أهزم يا مولاى !

وانتظر الملك حتى أتم رستم ثم صاح فى حزم :

ـ أخائف أنت يا رستم ؟ ! أتظن أن فى سيوف العرب ناراً كما يقولون ؟ !

ـ لا يا مولاى ولكنه الرأى !

ـ أنت مضطرب خائف يا رستم ! ولعلك رأيت رؤيا من تلك التى تعتقد فى صدقها ! أنت رجل نجوم ورؤيا لا رجل حرب وجلاد !

فاضطرب رستم لغضب الملك ، وحاول التجلد . لكن رؤياه تمثلت له فبدا اضطرابه ، وأراد أن يعيد على الملك القول لعله يقنعه بإرسال غيره . لكن الملك صاح فى غضبة شديدة :

ـ ستذهب أنت يا رستم ! لن يذهب غيرك لملاقاة سعد بن أبى وقاص

أعطوا بأيديهم

أرسل سعد إلى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام قبل المعركة، واختار بعض أصحابه فساروا فى سلاحهم يركضون خيولهم مسرعين إلى المدائن ، والناس فى دهشة من عزمهم وملابسهم وخيولهم ، حتى بلغوا مقر الملك ، واستأذنوا عليه غير مهتمين بتلك العظمة المتمثلة فى قصره الشامخ وما حوله من الجند والقوة، فعجب الحراس لجرأة هؤلاء العرب وطلبهم الأذن السريع على الملك الأعظم ، وأخبروا يزدجرد فاشتد به الغضب وهم أن يأمر برءوسهم فتطير حتى يكونوا عبرة لقائدهم ، لكن وزراءه أشاروا عليه بالإذن لهم والاستماع لحديثهم ، فربما أرسلوا يطلبون شيئاً من خير فارس ونعمة كسرى ثم يعودون إلى بلادهم وينتهى من شرهم ، فوافق الملك بعد إلحاح ودعاهم إليه .

دخل هؤلاء الرسل على كسرى فى إيوانه الكبير ، بأيديهم سيوفهم ورماحهم ، وحولهم الحراس من كل جانب ينتظرون إشارة الملك ، حتى وقفوا أمامه فألقى عليهم نظرة ساخرة، ثم صاح فى كبرياء ، والترجمان ينقل حديثه إليهم :

— من أنتم أيها العرب ؟ طالبو نعمة كسرى ؟ !

ـ بل رسل سعد بن أبي وقاص أمير الجيوش !

ـ ومتى كان للعرب جيوش وأمير جيوش ؟ !

ـ يوم هداهم الله وجمع كلمتهم أيها الملك !

وهز الملك رأسه ونظر إلى وزرائه ، ثم أعاد النظر إلى العرب وصاح ساخراً :

ـ وماذا تريدون ؟ لعلكم اختبرتم قوتنا ، وعرفتم بأسنا ، واقتنعتم بخطأ ما فعلتم فجئتم نادمين !

واشتد الغضب به فارتفع صياحه واستأنف قائلاً :

ـ ألأننا تشاغلنا عنكم اجترأتم على أرض الأسد ؟ ! لقد كنتم تلقبون فارس بالأسد ، والأسد باق كما هو فى عرينه يلتهم من تسول له نفسه أن يقترب منه ! ولا زلنا فى عجب مما دعاكم إلى هذا الجنون ! أتظنون راكبي الجمال يغلبون كسرى صاحب الأفيال ؟ !

ودوى الإيوان بقهقهة الملك ثم قال ساخراً :

ـ ولكن لعلكم جئتم تائبين مستغفرين ! وسنفكر فى أمر هذه التوبة !

وسكت يزدجرد وانطلق أحد العرب فى عزة :

ـ لم نجيء مستغفرين أيها الملك ، وإنما جئنا ندعوك إلى الله . وقد بعث رسولنا إلى آبائك من قبلك يدعوهم إلى الإسلام ، فمزقوا كتابه واستكبروا واستهانوا بقوة الله القادرة ، وظنوا أن العرب المتفرقين لن يجتمعوا ،

ولكن الله جمعهم على الحق ، وجعلهم قوة سارت إليك لترشدك إلى الله فيكون لك ما للعرب .

فاصفر وجه الملك وتلاحقت أنفاسه ، وكاد يأمر بقتل هؤلاء الرسل ؛ والتفت إلى وزرائه فأسرع كبيرهم يرجوه أن يصبر على هؤلاء العرب وإن أغلظوا ، لأنهم رسل لا يقتلون ولا يهانون ولا يتحدثون إلا بما أرسلهم به قائدهم ، ولا يجدر بالملك الأعظم أن يدنى نفسه من أمثالهم ، والأجدر أن يستمع إليهم فلعل فى الرسالة ما يكشف خططهم أو يسر بعد هذه الغلظة ، فهدأ بعض من ثورة الملك ، ورضى بأن يستمع إلى باقى الحديث ، وأشار فى كبرياء إلى متحدثهم فاستأنف قائلا :

ـــ لعلك أنكرت أيها الملك لهجتنا وظننت أننا اجترأنا عليك ، لأنك لا تدرى أن ديننا لا يفرق بين ملك وسوقة ، وليس فى الإسلام كبير ولا صغير ، كلهم فيه سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فإذا حادثتك كما أحادث الناس فإنما أنفذ قواعد دينى ، وأؤدى رسالة عاهدنا الله عليها ، وقد خرجنا لهذا أيها الملك !

ونظر الملك مرة أخرى إلى وزرائه ، ثم أعاد النظر إلى العرب وصاح فى سخرية عنيفة :

ـــ لهذا خرجتم ؟ ! لتساووا بين الملوك والسوقة ؟ !

فقال العربى فى حزم وثقة :

ــ لهذا ولكل خير أيها الملك ، خرجنا دعاة إلى الله لا نبغى إلا رضوانه ونشر العدل فى هذه الدنيا الآثمة !

وقهقه الملك ، ثم صاح فى سخرية أضحكت وزراءه وجنوده :

ــ تقيمون العدالة فى هذه الدنيا ؟ ! أقيموها فى بلادكم وأبطلوا السلب والنهب وعدوان بعضكم على بعض !

فابتسم العربى ساخراً ثم قال فى عزة :

ــ كأنك لم تعلم بما حدث فى الأرض ! لقد أبطل دين محمد كل ذلك ، أزال ما بين العرب من العداوة والبغضاء فأصبحوا إخواناً فى الله ، حتى إذا أدوا حق الله فى أهلهم جاءوا إليكم ليؤدوا حق الله فيكم ، ونحن ندعوكم اليوم إلى هذا الدين ، فإذا أبيتم فأمر من الشر أهون من أمر آخر شر منه وهو الجزية .

واشتد الغضب بالملك وهب واقفاً ثم هز سيفه صائحاً :

ــ أنتم تفرضون الجزية على فارس؟! لا كانت الحياة إذا وضع أمثالكم علينا الجزية ! سترون أيها العبيد كيف تجترئون على كسرى وبلاد كسرى ! ستستأصلكم جيوشنا من فوق الأرض ! .

فابتسم العرب لثورة الملك وتهديده ، ثم صاح واحد منهم فى ثبات :

ــ هذه هى الثالثة أيها الملك إذا أبيت الإسلام أو الجزية ، هى الحرب التى لا تبقى منكم باقية !

فتحرك الملك إلى العرب ليطيح برءوسهم ، وماج الوزراء لاجتراء هؤلاء الرسل على الملك ، لكن رئيس الوزراء أسرع يستعطف يزدجرد ، ويستمهله، ويرجوه ألا يقتل الرسل ، فعاد إلى مكانه وهو يصيح فى ثورة هزت الإيوان :

ــ سترون أيها المغرورون ! أبمثل هذه النصال التى فى أيديكم تملكون فارس ؟ ! أبمثل هذه الملابس والعمائم تزيلون ذوى التيجان ؟ !

ثم التفت إلى الحراس صائحاً :

ــ آتونى حمل تراب ! لا شىء لهؤلاء العبيد إلا ذلك التراب !

فأسرع الخدم بحمل التراب ، ووقفوا ينتظرون أمر الملك ، وهو يقلب عينيه فى وجوه العرب ثم صاح فى شدة :

ــ احملوه على أشرف هؤلاء ، وسوقوه كما تساق البغال حتى يخرج من باب المدائن أمام الناس .

ثم التفت إلى العرب صائحاً :

ــ ارجعوا إلى صاحبكم المغرور سعد بن أبى وقاص ، وأخبروه بما رأيتم ، وأنى أرسلت إليه رستم الجبار يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية ، ثم يسير إلى بلادكم ويعلم العرب كيف يجترئون على سادتهم !

ورفع الخدم الحمل ، فأسرع واحد من الرسل وأمال رأسه صائحاً فى سرور :

— ضعوه على عنقى فأنا أشرف هؤلاء! ضعوه على عنقى فأنا سيد هؤلاء.

فوضع الخدم الحمل على عنق العربى والملك ووزراؤه وحراسه يقهقهون حتى خرج من الإيوان .

عاد رستم فى ذلك الوقت من مركز قيادته ودخل على الملك فأخبره بأمر الرسل، ولم يخف عليه إعجابه بثباتهم وحسن جوابهم، وأنه لا يزال فى دهشة من أمرهم لأنه وجد أفضلهم أحمقهم ، فقد حمل التراب على عنقه وسار فى فرح شديد .

سمع رستم حديث الملك فاتسعت حدقتاه ، واصفر وجهه ، ثم صاح كالمجنون :

— ليس أحمقهم ! ليس أحمقهم ! ردوهم ! ردوهم !

فانطلق الفرس خلف العرب ورستم يصيح فى حزن :

— ليس أحمقهم يا مولاى بل كان أعقلهم ، فقد حمل أرض فارس إلى قومه ، وأعطيناه ترابها بأيدينا !

فقهقه الملك قهقهة عالية ثم صاح فى سخرية :

— أهمك أمر العرب يا رستم حتى توهمت ما لن يكون ! اقذف هذه الأفكار من قلبك واستعد للمعركة ، وتأكد من هوان خصمك يشتد عزمك وثق فى النصر تجد النصر أمامك !

وخرج رستم يضرب كفا بكف ، ويتمنى أن يدركوا رسل العرب ،

لكنهم انطلقوا يسابقون الرياح ، ووصلوا إلى سعد والبشر يملأ وجوههم ، وأمامهم حامل التراب يحوطه بيديه فى حذر ، حتى ألقاه بين يدى سعد صائحاً فى سرور :

ـ أبشر يا سعد فقد جئنا إليك بأرض فارس ، فتوكل على الله وما النصر إلا من عند الله .

الخوف

كانت درة فى شوق للمعركة ؛ تود أن تنطلق جيوش المسلمين حتى تدخل المدائن فتلتقى بأهلها ، وكان رستم يبطىء فى سيره حتى ييأس المسلمون فيرحلوا دون قتال ، يحدث خلصاءه باعتقاده فى الهزيمة ويشكو إكراه الملك إياه على الخروج ، فوصل القادسية بعد أربعة أشهر فى جيش يسد الأفق ، به مائة وعشرون ألفاً مزودون بالسلاح والعتاد ، وخمسة وثلاثون فيلا مدربة على الحرب ؛ ونزل مكاناً يشرف على المسلمين وأخذ ينظم أمره للقاء ، لكنه رأى مرة أخرى تلك الرؤيا المفزعة فهب عازماً على دعوة العرب للصلح ، وأرسل إلى سعد أن يبعث إليهم من يكلمهم ويكلمونه ، فرأى سعد أن يرسل إليه رجلاً واحداً حتى يحس بأنهم غير مهتمين به وبجيشه وأفياله ؛ وسار ربعى بن عامر إلى مضارب الفرس .

جمع رستم العظماء والكبراء ، وجلس على سرير من الذهب ، وبسط البسط والنمارق والوسائد الموشاة بالذهب ، وتكلف الفرس كل ما يظهرهم فى عظمة وقوة ، حتى يعود رسول المسلمين مأخوذاً بما يرى ، ويصف لقومه ما شاهد فيدب الخوف إلى قلوبهم . وأقبل ربعى على فرسه وسيفه بيده قد لف مقبضه بخرقة قديمة ، فأخذ الفرس يتغامزون ويضحكون حتى انتهى إلى البسط وهمز فرسه ليسير فوقها ، فصاحوا به لينزل فلم يهتم بصياحهم ، وسار بفرسه على البسط الثمينة متجهاً إلى رستم فى صدر المكان حتى اقترب ، فنزل وأمسك بزمام الفرس ، ومد يده إلى وسادتين من الحرير المطرز بالذهب فشقهما وأدخل فيهما زمام الفرس وربطه بهما . وقلوب الفرس تكاد تنفجر من الغيظ ، لكنهم آثروا إظهار الاستهانة بما يفعل . وطلبوا منه أن يلقى سلاحه فصاح فى غضب : « قد دعوتمونى ولم آتكم من تلقاء نفسى فأخضع لأمركم ، فإن قبلتم أن آلبى دعوتكم كما أريد وإلا رجعت » فصاح رستم فى سخرية : « ائذنوا له أن يقبل فى سلاحه . هل هو إلا رجل واحد ؟ ! » .

وسار ربعى إلى رستم يتوكأ على رمحه ، يقارب خطوه ويضرب الرمح فى البسط والنمارق فيمزقها ، حتى دنا من القائد فجلس على الأرض ، وركز الرمح فى البساط ، فصاحوا به فى سخرية : « اجلس أيها العربى على البساط ! ألا تعرفون البسط ؟! » فهز ربعى رأسه ونظر إليهم نظرات ساخرة

ثم قال فى استهانة : « لا نحب القعود على زينتكم هذه ، ولا قيمة لها عندنا ! » . ولقد صبر الفرس على هذا العربى الذى يسخر بهم ،وصاح رستم يسأله والترجمان ينقل الحديث :

— ماذا جاء بكم أيها العربى إلى بلادنا ؟

— جئنا لنخرجكم من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد أرسل رسولنا بالحق إلى الناس كافة .

وأطرق رستم ولاحت له رؤياه فهز رأسه يقلب فيه حديث العربى ، ثم قال فى هدوء متكلف :

— عرفت ما تريدون ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟!

— نعم نؤخره ، فكم تحب أن يكون هذا التأخير ؟ يوماً أو يومين ؟ !

وكظم رستم غيظه لهذا التهديد ، ثم قال وهو يتكلف الهدوء : « بل تنظروننا حتى نكاتب أهل ديارنا ورؤساء قومنا ، وذلك يحتاج إلى مدة طويلة ! » . فأسرع ربعى يقول فى حزم : « ليس ذاك ! إن مما سن لنا رسول الله وعمل به أئمتنا ، ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث يرون فيها رأيهم ، فنحن منظروكم ثلاثاً تختارون فيها واحدة من ثلاث : إما الإسلام وندعكم وأرضكم ، وإما الجزية فنكف عنكم وننصركم إذا احتجتم إلينا ، وإما الحرب فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا و بين اليوم الرابع حتى تكون

أنت البادئ » . ونظر رستم إلى من حوله من القواد ثم قال فى سخرية : « ومن يكفل لنا ذلك أيها العربى ؟ » فانطلق ربعى فى ثقة : « أنا كفيل بذلك عن أصحابى » .

فاشتدت الدهشة بالفرس وجعلوا ينظرون إلى ثياب هذا العربى وفرسه وسلاحه ، وتبادلوا النظرات فى عجب أن يكفل هذا العربى قومه الذين يهددون فارس ، ثم صاح رستم فى سخرية :

ــ أسيد أصحابك أنت ؟ !

ــ لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد ، بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم !

وصمت رستم وربعى ينتظر جوابه فى ثبات ، وتبادل مع أصحابه النظرات ثم صاح فى غيظ :

ــ انصرف أيها العربى وسنرى ما يكون .

عاد ربعى يتوكأ على رمحه ويخرق به البسط والطنافس ، حتى بلغ فرسه فحل زمامه من الوسادتين وقذف بهما فى هدوء ، ثم ركب فرسه وانطلق رافعاً سيفه ، وعيون الفرس تتبعه حتى غاب عن أنظارهم ، فالتفت إليهم رستم صائحاً : « ماذا ترون أيها القوم ؟ أسمعتم كلاماً قط أعز وأوضح من كلام هذا العربى ؟ ! » فانبعثت الصيحات تعيب صبرهم عليه ، وتؤكد أن الرأى كان قتله حتى يكون عظة لغيره ؛ فصاح رستم :

« ولكنه يعرض أموراً جديرة بالبحث والتأمل ! » . فضج أصحابه وصاحوا في غضب : « معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب ! أما ترى ثيابه وسلاحه وفرسه ؟ ! » . فهز رستم رأسه مرات ثم قال في صوت مختنق : « لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والقلب ! » .

دار الحديث واشتد الجدل ، وأشار الكثيرون بالهجوم وفضل القليل التمهل ، ثم اتفقوا على أن يطلبوا رجلا آخر ، فربما يكون ذلك قد نقل إلى سعد ما رآه من أبهة ، فأخافه وعدل عن الحرب .

وفي الصباح كان حذيفة بن محصن يسير إلى معسكر الفرس في ذلك الزى الذى ذهب به ربعى ، بيده سيفه ، وتحته فرسه ، حتى بلغ خيمة رستم فدخلها راكباً ، وسار فوق البسط حتى وقف أمامه ، فصاح به لينزل ، فابتسم حذيفة في سخرية ثم قال في عزة :

ــ ولم النزول أيها الرجل ؟ ! ألا أستطيع أن أحدثك إلا فوق الأرض؟! لسانى طوع إرادتى ، وجنانى معى أينما كنت !

ــ ولم جئت ولم يجىء رسول أمس ؟ !

ــ ذاك رأى أميرنا سعد بن أبى وقاص ، فهو يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء ، وهذه نوبتى !

وفاض بالفرس الغضب وأخذ رستم يحادث حذيفة فيما جاء بهم وهو

يجيب بمثل جواب ربعى ، فطلب منه إطالة المدة حتى يروا رأيهم ، فصاح حذيفة فى قوة :

ــ لا ، ليس لكم إلا ثلاث من أمس !

وصمت رستم فى غيظ وتبادل النظرات مع أصحابه ، ثم أشار إلى حذيفة بالانصراف ، فعاد رافعاً سيفه مسرعاً بجواده ، والفرس ينظرون إليه حتى توارى عن عيونهم ، فقال رستم لأصحابه فى نبرات حزينة : « ويحكم ! أما ترون ما أرى ؟ ! جاءنا رجل بالأمس فغلبنا على أرضنا ، وخرق بسطنا ، وحقر ما نعظم ، وأقام بفرسه على زينتنا وربطه بها ، وجاء اليوم هذا العربى يقوم على أرضنا دوننا ! » ، فعلت الأصوات واشتد الجدل فى الهجوم أو التمهل ، ثم اتفقوا على أن يطلبوا ثالثاً فربما رجع العرب عن رأيهم فى الحرب بعد ما سمعوا حديث من بعثوه .

وأرسل سعد إليهم المغيرة بن شعبة ، فأقبل عليهم وقد لبسوا التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، ومدوا بسطاً عريضة طويلة يسير فوقها القادم مدة حتى يصل إلى رستم فى صدرها ، وعرضوا الأفيال والسلاح والجند ، وسار المغيرة على البسط فى غير اهتمام ، حتى بلغ سرير رستم وجلس معه عليه فى ثبات ، فانبعثت الصيحات : « أنزلوه ! أنزلوه ! عربى لا يدرى ! عربى لا يعرف الملك ! » وأسرع الفرس يجاذبونه وهو يصيح فى غضب وسخرية : «ماذا أيها القوم ؟ ! قد كان

يبلغنا عنكم القول والرأى ، ولكنى لا أرى قوماً أسفه منكم ! إنا معشر العرب لا يستبد بعضنا ببعض ، فظننت أنكم مثلنا تسوسون قومكم كما نساس ، لكنى عرفت أن بعضكم عبيد لبعض ؛ وقد دعوتمونى ، فكان الأجدر أن تعدوا لى أرفع مكان ! » . وضحك الفرس فى ألم وهم يوازنون بين ملابس هذا العربى وسلاحه وبين دقة كلامه وكبر قلبه ، ثم صاح به رستم :

ــ علمت أيها العربى أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من جهد فى بلادكم ، فهل ترضون بأمر إخاله يقنعكم ؟

فقال المغيرة فى ثبات :

ــ ما جئنا لجهد أصابنا أيها الرجل ، ولكن اعرض أمرك !

فقال رستم :

ــ نأمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم !

فقهقه المغيرة قهقهة عالية ثم قال فى سخرية :

ــ ثم ماذا ؟ !

ــ ثم نأمر لكل منكم بحمل من تمر !

ــ ثم ماذا ؟ !

وأدار رستم عينيه فى وجوه أصحابه ثم صاح فى سخرية :

ــ ثم ماذا ؟ ! ثم تنصرفون ، فإني لست أشتهي قتلكم !

فعاد المغيرة يقهقه ثم قال ساخراً :

ــ لقد ذاق عيالنا طعام بلادكم فقالوا : لا صبر لنا عنه ، فماذا ترى ؟ !

ففاض الغضب بالفرس ، وصاح رستم صيحة هزت المكان :

ــ إذن تموتون دونها !

ورد المغيرة على هذه الصيحة فى قوة :

ــ يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظفر من بقى منا بمن بقى منكم !

وانبعثت صيحات رستم وجسمه يرتعد غضباً :

ــ لن ينفع فيكم غير السيف ! أنتم عبيدنا وتجترئون علينا ؟ ! والشمس ، لا يرتفع صبح غد حتى لا يبقى رأس منكم على كتف ! بلغ سعداً فليستعد لسيف رستم ، وليعد عنقه ليسلمه بهامته فى صباح الغد إن شاءت النار !

القادسية

ارتفع صباح الغد ، ورستم بين أصحابه يشير عليهم بمصالحة العرب فلم يستجيبوا له . ورأى سعد بن أبى وقاص أن يعذر إليه قبل المعركة ، ويدعوه إلى ما هو خير من الحرب . حقناً للدماء وتفضيلا للسلام ، وبعث إليه ثلاثة من أصحابه فدخلوا عليه فى ثبات ، وتكلف هو أن يلقاهم فى عدته وصاح بهم فى ابتسام مصطنع :

— حسناً أيها العرب ! قد استبنتم الصواب ورجعتم إلى الحق !

— أى صواب وأى حق ؟ !

— ألم تجيئوا لتخبرونا بعدولكم عن الحرب ! ؟

— بل جئنا لنبلغك أمر أميرنا سعد بن أبى وقاص ، وندعوك إلى ما هو خير لنا ولك ، أن تقبل ما دعاك إليه رسله ، وتتق الله فى قومك . ولا تكون اليد التى تهلكهم ، وليس بيننا وبينك إلا أن تطرد الشيطان وتجيب إلى الإسلام .

وأطبق رستم أجفانه وقلب فى رأسه كثيراً من الأفكار ، ثم قال فى سخرية ممزوجة بالحزن :

— كنتم أهل جهد وبؤس تعيشون فى مشقة وضنك ، فكنا نحفظ

جواركم ونحسن إليكم ، فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا وصفتموه لقومكم ودعوتموهم إليه ، ثم جئتم بجمعكم فكان مثلنا ومثلكم كصاحب الكرم ؛ أتدرون ما صنع صاحب الكرم ؟ !

واعتدل رستم فى مجلسه وغمر العرب بنظرة ملتهبة ثم استأنف قائلا :

— كان لرجل كرم ذو سور عال ، فرأى فيه ثعلباً نفذ من فتحة فى السور ، فلم يهتم به وقال : وما ثعلب ؟ ! لكن الثعلب انطلق بعد أن ذاق العنب ودعا إخوانه الثعالب ، فأسرع صاحب الكرم إلى الفتحة وسدها وتمكن من الثعالب جميعاً فأبادها ، فارجعوا عن ديارنا ولا تكونوا مثل تلك الثعالب ، ولا مثل الذباب الذى يرى العسل فيقول : من يوصلنى إليه وله درهمان ؟ فإذا دخله نشب به وغرق فيه فيقول : من يخرجنى منه وله أربعة دراهم ؟ .

وصمت رستم وقد ظن حديثه أثر فى العرب ، ورجا أن يجيبوه بغير الحرب ، لكن واحداً منهم صاح فى قوة : « والله ما جئنا بلادكم نقصد الدنيا ونعيمها ، ولو كانت الدنيا ونعيمها مقصدنا ما بعثنا سعد إليك ، نخيرك وندعوك إلى الإسلام ، وما صبرنا عن الذى نحن فيه من لذيذ عيشكم حتى نموت دونه ، وليس لدينا إلا أن ندعوك بدعوة الإسلام » .

وارتفع صوت العربى أشد مما كان :

— ثلاث يا رستم : الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وليس لك من الوقت غير قليل .

وأطبق رستم أجفانه ، وضغط فكيه ، وزفر زفرة ملتهبة ، ثم قال فى حسرة :

— إذن ليس إلا الحرب ؟ !

فقال العرب

— نعم ليس لدينا إذا أبيت إلا قراع السيوف.

فصاح رستم هائجاً :

— إذن نلتقى غداً ، وسترون أيها المغرورون كيف اجترأتم على سادتكم ، وستعلمون سيوف الفرس وأفيال الفرس .

ووجد سعد أنه قد أعذر ، ونادى فى المسلمين ليأخذوا مواقعهم ، ودعا درة لتستعد بمن معها من النساء لإسعاف الجرحى ودفن الشهداء . ' . الليل عسكر الفرس وعسكر المسلمين برداء واحد لا يفرق بين الناس الذين فرق بينهم الكبر والغرور ، حتى أصبح الصباح وغمرهم جميعاً بنوره يناديهم إلى السلام والمحبة ، ويشرح للفرس آيات الله وقدرته ، ويعيب مكابرتهم وعنادهم . وبدأ الفرس يتدفقون إلى أرض المعركة ويعبرون الجسر إلى المسلمين ، وجلس رستم فى سريره وضربت عليه قبة عالية ، وجعل فى قلب جيشه ثمانية عشر فيلا ، وفى الجانبين خمسة عشر

فيلا ، وفوق الأفيال صناديق تحمل الرجال .

وأخذ المسلمون مواقعهم ، ودوت أصوات قوادهم تحث على الصبر : وتذكر بوعد الله وبما نال المسلمون قبل اليوم من رقاب الفرس ، وانبعث الشعراء والخطباء يهزون المشاعر ويثيرون الحماسة ، حتى تقدم الفرس والتحم الفريقان ، وأخذت سيوف المسلمين ترتفع بقوة اليقين ثم تنخفض على هامات الفرس فتشقها ، وجعلت رماحهم تصوب إلى القلوب فلاتخطئها ، لكن الأفيال اندفعت ترفع خراطيمها وتخفضها فأخافت خيول المسلمين ، واشتد الفرس خلفها يضربون ويقتلون والخيل هاربة ، فصاح سعد بالرماة ليضربوا عيون الفيلة فوجهوا سهامهم إليها ، واستدار آخرون خلفها وقطعوا أحزمة صناديقها فسقطت بمن فيها ، واشتد عواء الفيلة وجعلت تدوس الصناديق وتحطمها ، والفرس يلقون فى المعركة بأفواج كبيرة والمسلمون منهمكون فى جهادهم ، يخوضون فى الدماء إلى رقاب المشركين ، حتى عاد الليل يلقى أرديته على الكون ، يود أن يحجز بين هذه السيوف ، لكن صليلها لم ينقطع حتى هدأة من الليل ، فتراجع الفريقان .

أذن المؤذن يعلن اليوم الجديد ، وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير والحمد، ثم أسرعوا بعد الصلاة يستعدون ، حتى ألقت الشمس أشعتها على الأرض الحمراء ، والجثث المكدسة ، والأشلاء المتناثرة ، والجرحى الذين يئنون بين تلك الجثث والأشلاء ، فأسرع المسلمون بنقل جرحاهم

إلى مواطن التمريض ، ودفن القتلى فى أمكنة بعيدة ، ولم يبق إلا جثث الفرس وجرحاهم ، تشهد بما بذلت سيوف المسلمين من عناء .

تقدم الجيش إلى الجيش ، وجالت الخيل تطأ الجثث فتفجرها ، والجرحى فتقضى عليهم ، ولم تدخل الفيلة المعركة حتى تصلح صناديقها ، لكن العرب جاءوا بإبل وألبسوها براقع جعلت وجوهها مفزعة ، ودفعوها فى وجه الفرس كما كانوا يصنعون بالفيلة فى معركة أمس ، فما رأتها خيول الفرس حتى ولت الأدبار ، وجالت سيوف المسلمين فى أقفية الأعداء ، حتى أقبل الليل فحجز بين الفريقين وباتوا على ما باتوا عليه بالأمس .

أشرق صباح اليوم الثالث على أكداس مكدسة من القتلى والجرحى ، ثم أرسلت الشمس أشعتها على ألفين من المسلمين بين شهيد وجريح وعشرة آلاف من المشركين ، فأسرع المسلمون بدفن قتلاهم ونقل جرحاهم ، وبقيت رمم الفرس بين الصفين تثير الجزع فى قلوب المتقدمين منهم للنزال ، ثم التحم الفريقان واختلط أنين الجرحى بقعقعة الحديد ، ودفع الفرس بالفيلة فى وجه العرب وتوقعوا أن تفر منها خيولهم ، لكنها لم تهتم بتلك الخراطيم التى عرفتها قبل اليوم ، فجعلوا يحثونها ويزجرونها فزحفت على كتائب المسلمين وفرقت بينها ، يقودها فيلان كبيران ، فصاح سعد بجنده يوجههم إلى الفيلين ويدعوهم أن يحملوا عليهما ، فوجهوا إليهما الضربات ، وقتلوا أحدهما ، وقطعوا خرطوم الآخر ، وفقئوا عينه ، فظل بعين

واحدة يصيح ويتخبط بين الصفين ، يزجره الفرس إذا اقترب منهم ، وينخسه العرب إذا جاء إليهم ، فولى وجهه إلى النهر وعبره ، والفيلة جميعاً خلفه ، والمسلمون يكبرون ، حتى وصلت الفيلة إلى الشاطىء الآخر واتجهت إلى المدائن .

فلت قدرة الله ذلك السلاح الذى علق عليه الفرس آمالهم ، وخلت السيوف بالسيوف ، وتنادى المسلمون بالصبر ، وثارت العواصف تشارك جند الله جهادهم فى سبيل الله ، وأثارت الغبار ، واقتلعت خيمة رستم وساوت بينه وبين الناس ، وكان الفرس يلقون إلى المعركة بأفواج بعد أفواج ، وسيوف المسلمين تحصد هاماتهم كما يحصد الزرّاع سنابل القمح . حتى اخترقوا قلب جيشهم وأوقعوا الجزع فى قلوبهم ، واتجهت العيون إلى كبير من كبراء الفرس يلقى بنفسه فى الماء ، وجندى من جنود المسلمين يسبح خلفه حتى أمسك برجله وجذبه إلى الشاطىء ، ثم رفع سيفه وضربه ضربة شقته نصفين ، ثم ارتقى سرير رستم الذى انزاحت عنه الخيمة وصاح فى قوة :

ــ قتلت قائد الفرس ! قتلت رستم ورب الكعبة !

وتأكد الجيشان أن رستم قد لقى مصرعه فارتفع تكبير المسلمين ، وانهارت قوى الفرس فلاذوا بالفرار ، تاركين سلاحاً لا يحصى ، وغنائم لا تعد ، وألوفاً من القتلى والجرحى طعاماً طيباً لسباع السماء ووحوش الأرض .

وأقبل الناس على سعد يهنئونه بنصر الله. وأسرعت درة تذكره ببشارة الرسول ورؤيا الموبذان، وتشير إلى الخيل العراب والإبل الصعاب، ثم قالت في ابتسامة مليئة بالأمل :

ـ ويزدجرد ملكهم يا سيدى ؟ ! لا بد من القضاء عليه قبل أن يتجمعوا حوله !

فابتسم سعد وقد عرف ما تعنى ، ثم قال فى سرور :

ـ تعنين المدائن يا درة ؟ ألم تجدى أحداً من أهلك فيمن أقبل علينا من فارس ؟ !

ـ لم أجد يا سيدى ، وإنى لكبيرة الأمل فى عطف الله ، وأرجو ألا نصبر كثيراً على يزدجرد .

فقال وهو غارق فى نشوة النصر :

ـ سننتظر يا درة أمر أمير المؤمنين عمر ، وقد أرسلت إليه بالبشرى ، وجيوشنا كما ترين فى تعبئتها الكاملة ، وسنسير عند الإشارة إن شاء الله .

المدائن

قالت درة فى اهتمام :

مضى شهران يا سيدى وأخاف أن يتجمع الفرس حول يزدجرد !

ـ نحن فى انتظار إشارة الخليفة يا درة وكل شىء بأجل .

ـ ولكنّ ملاحقة العدو خير من التمهل .

ـ وربما كان التمهل أجدى يا درة !

ومضت درة تنتظر فى لهفة وسعد ينظم أمره ، وقد كثر السلاح والخيل مما خلف الفرس بالقادسية ، وأصبح المسلمون يتأهبون ليسيروا جميعاً على صهوات الخيول ، حتى جاء أمر الخليفة فانبعثت الأصوات تهز الأرجاء :

ـ الله أكبر ! نصر من الله وفتح قريب ! المدائن ! الإيوان !

وامتطى المسلمون خيولهم وقد رأى سعد أن يترك النساء والأطفال بالقادسية ، لكن درة أقبلت تتوسل إليه أن يأذن لها بالمسير مع الجيش لتتم الجهاد وترى بعينيها تحقيق بشارة الرسول ، وتمتع قلبها بمنظر الخيل العراب تجوس خلال فارس ، فقد ملأت الصورة خيالها منذ أن كانت صغيرة ، وأحس سعد بما فى صدرها من الشوق لأهلها والأمل أن تلقاهم

بالمدائن ، فأذن لها فى المسير .

أسرعت الخيل بين القرى والحقول ، تشق الحدائق المتشابكة الأغصان الدانية القطوف ، وعبير الريحان وشذى الزهر يفوح ويملأ الأنوف فيكبر المسلمون وتصهل الخيول ، ويسرع الفلاحون مستأمنين ، قد بلغهم عن المسلمين عفتهم وتقواهم وحزم قائدهم ، فلم تمتد أيديهم ولا عيونهم إلى شر منذ أن دخلوا تلك البلاد ، وعهدهم بجيوش الفرس ينهبون الأموال ويهتكون الأعراض ويسفكون دماء الأبرياء فى صلف وكبرياء .

وأقبلت جيوش الفرس تعترض المسلمين فزقوها مرة بعد مرة ، ولم يبق فى غرب دجلة إلى أرض العرب إلا من صالح وأمن فى ظل الإسلام ، حتى بلغ المسلمون المدائن الدنيا فى غرب دجلة ، فوجدوها حصينة منيعة يحتضنها سور شامخ نصب الفرس فوقه المجانيق ، وحفروا حوله خندقاً عميقاً ، فأفرج المسلمون شقة واسعة حتى يكونوا بعيداً عن مرمى القذائف .

ووجد سعد من يصنع له مثل هذه العدة القوية ، ونصب المسلمون عشرين منها على مرمى السور ، ووضعوا فيها الحجارة وشدوها إليهم ثم تركوها فانطلقت قذائفها تهز السور المنيع ، ووقف الفرس ينظرون فى حيرة إلى هؤلاء المردة الذين يستطيعون كل شىء ، ويعزمون فلا يستعصى عليهم أمر ، ثم أخذوا يخرجون جماعات فتلقف سيوف المسلمين من تصل إليه ، وتلوذ البقية بالسور ، حتى طال الأمد ، فخرجوا هبة واحدة وتبايعوا على

الصبر ، ونادى سعد فانحدرت السيوف إلى رقاب الفرس ، واخترقت الرماح أفئدتهم ، وأحس المشركون أن لا دافع لهذه القوة الجبارة ، فولوا الأدبار وأغلقوا عليهم الأبواب .

وثارت مجانيق الفرس فى غير وعى ، والمسلمون ينظرون إلى قذائفها الطائشة ، ويكبرون كلما ضربت الأرض دون أن تصيب منهم أحداً ، يفكرون فيما دعا الفرس إلى هذه الثورة التى لا تجدى ، ويرون أن وراءها أمراً يدبر ، حتى انتصف الليل فهدأت تلك المجانيق ، ولف المكان صمت عميق ، وقفز إلى ذهن سعد أن تلك الحركة كانت لتغطية انسحابهم من المدائن الدنيا إلى المدائن القصوى ، لكنه خشى أن يكون وراء هذا الهدوء خدعة فأخذه يفكر ، ثم انتبه على صوت قوى من فوق السور ينادى بالأمان ، ويصيح بأن الفرس قد فروا ولم يبق بالمدينة شىء ، فخاف أن يكون ذلك من تمام التدبير ، لكن الصوت استمر مؤكداً مقسماً حتى أشار سعد ، فانطلق المسلمون يتسلقون السور ثم انحدروا إلى المدينة فوجدوها خاوية ، ففتحوا الأبواب وانبعث التكبير يهز القصور العالية والشوارع الفسيحة ، وأسرعوا إلى الشاطىء لكنهم وقفوا ينظرون ، فقد أخذ الفرس السفن والمعابر إلى المدائن القصوى .

كان الليل يلف النهر وما حوله بأردية الظلام ، لكن بناء شامخاً كان يتلألأ فى الجانب الشرقى ، فتحدث بعض المسلمين إلى بعض ثم انطلقت

الأصوات تهز جوانب الأفق :

ـ الله أكبر ! أبيض المدائن ! هذا ماوعد الله ، وصدق الله ورسوله .

ولم يهدأ التكبير حتى أشرقت الشمس ومدت أشعتها فوق النهر وضياءها بين القصور ، فبدا المكان كله يتلألأ والمسلمون يفكرون فى العبور خلف الفرس ، لكن كيف يعبرون ؟ ! لا سفن ولا معابر ! أيخوضون النهر سابحين ؟ ! لكنها مجازفة غير مأمونة العواقب ! أيصنعون السفن والمعابر ؟! لكنها تحتاج إلى زمن يستعيد فيه العدو قوته ! فماذا يصنعون ؟ !

جعل سعد يفكر ويدعو الله أن يلهمه وجه الصواب ، حتى استيقظ ذات صباح ضاحكاً مستبشراً ينادى المسلمين بالركوب :

ـ إلى أين يا سعد ؟ !

ـ إلى المدائن القصوى . أذن الله بالفتح والنصر !

ـ وكيف والماء متدفق ، ودجلة يزمجر ، والمد مرتفع ؟ !

ـ رأيت الليلة خيلنا تخوض الماء ونحن على صهواتها ، أليست الخيل ماهرة فى العوم ؟ ! لقد عزمت على قطع هذا البحر الذى اعتصم العدو به ، وقد هيأ الله لنا السفن والمعابر !

وانبسطت أسارير المسلمين وصاحوا فى عزم :

ـ وُفقت يا سعد ! عزم الله لنا ولك على الرشد .

الإيوان

كان الفرس يقفون على الشاطىء الشرق من دجلة ، ينظرون إلى مائه المتدفق ، وشفاههم تنفرج عن سخرية من العرب الذين أعجزهم النهر عن اللحاق بهم ، والمسلمون على الشاطئ الآخر ينظرون ويفكرون .

وذات صباح مشرق ، وماء النهر يسرع من الشمال إلى الجنوب ، كان الفرس بجانبه يلقون بسخريتهم على الشاطىء الغربى ، لكن واحداً منهم رأى أشياء تتحرك فى الماء متجهة إليهم كأنها رءوس الخيل ، خلفها رجال جلوس يحملون الرماح والسيوف ، فصاح فى هلع :

ــ العرب ! العرب !

وقهقه الواقفون معه ثم صاحوا ساخرين :

ــ ما لعينيك ؟ ! أين العرب منا الساعة ؟ ! سيموتون بغيظهم فى المدائن الدنيا ! وقد عرفوا أن بلادنا ذات الأنهار ليست صحراء ذات رمال تخترقها الجمال ! لن يتقدموا شبراً بعد اليوم !

ــ لكنها أشياء تشبه الخيل وفوقها ما يشبه الرجال !

ــ ليس إلا اختلاج أجفانك ووجيب قلبك ، وبقية مما لقيت فى

حصار المدائن الدنيا !

ـ ولكنها خيول ورجال ! حددوا أنظاركم !

وحدد الواقفون أنظارهم وقد اقتربت تلك الأشياء المتحركة فى الماء ، ثم صاحوا فى ذعر :

ـ الشياطين !

وقفزوا فى النهر ليردوا مقدمة جيش المسلمين التى خاضت الماء أمامه ، فسدد المسلمون رماحهم إلى عيونهم فاخترقتها كما تدخل السيوف أغمادها ، وأحس الفرس بالخطر فولوا فى جزع حتى خرجوا من الماء تلاحقهم الرماح ، رأى سعد بن أبى وقاص نجاح الطليعة فكبر إيذاناً بالاقتحام ، فهمز المسلمون خيولهم فقفزت إلى الماء ، ثم سارت كأنها التماسيح الجائعة ، والمسلمون على ظهورها يتجاذبون الحديث ويذكرون الله ، حتى بلغوا الشاطىء الشرق ، فخرجت الخيل تنفض أعرافها ، وتنشد بصهيلها نشيد السلامة ، والمسلمون يكبرون فيهزون الأرجاء .

صاح الفرس ساخطين جازعين يحثون قومهم على الفرار ، فأسرع الناس حاملين ما خف وغلا ، وفر يزدجرد بما استطاع إلى حلوان فى الشمال الشرق من المدائن ليلحق بعياله ، تاركاً ميراث الأجداد الذين جمعوه من دماء المظلومين وحقوق الجائعين والمحرومين فى آلاف السنين .

سار المسلمون إلى المدائن فى طرق ممهدة تنتثر عليها أشعة الشمس من

خلل الأشجار الباسقة ، والزهر يضحك فى جانبيها يحي جيش الإيمان ، ويعلن الفرحة بذهاب دولة الطغيان ، حتى دخلوا المدائن يهزون بتكبيرهم القصور الفسيحة الممتدة فى أحضان الخمائل ، إلى أن بلغوا الإيوان فجلجلت الأصوات :

ــ الله أكبر ! الله أكبر ! هذا ما وعد الله ، وصدق الله ورسوله !

ودخل المسلمون قاعة كبيرة طولها مائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعاً ، مبنية بالآجر والجص ، ذات سقف معقود قطعة واحدة ، ترفعه عمد من الرخام المحلى بالنقوش البديعة ، وقلوب المسلمين خاشعة ، وسعد ممتلىء العينين بالدموع ، يلتى بفكره عبر تسعة وعشرين عاماً ، حين بشر الرسول بدين الله ، والمشركون يسخرون منه ويرمونه وأصحابه بالجنون ، وحين كانت درة الصغيرة تقص عليه رؤيا الموبذان ، وقلبها ممتلىء بالأمل فى توحيد العرب وفتح فارس ، وعودتها إلى وطنها مع الخيل العراب ، وحين كان كفار مكة يزفون المؤمنين فى شوارعها مستهزئين بملوك الأرض ، ثم نظر إلى ما حوله فى خشوع وهو يتلو قول الله تعالى :

ــ « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

ثم سرح المسلمون عيونهم فى جوانب الإيوان وصاح بعضهم :

كسرى على فرسه يقود جنوده ! اضربوه !

وشك بعضهم الحائط برماحهم فارتدت إليهم دون أن يسقط الفرسان ، فقد كانت المعركة صورة لكسرى أنو شروان تحت رايته الكبيرة ، يقود جيشه ويختال فى ثيابه الزاهية ، أجاد الرسام صنعها حتى يرتاب من يراها فى أنها معركة تتحرك ، ثم ارتفع الصياح فى دهشة :

— عرش كسرى ! من الذهب !

كان يجلس عليه تحت هذه القبة المرصعة بالجواهر ، بجانب هذه المروحة الكبيرة المصنوعة من ريش النعام ، وحوله مجالس الأعوان والوزراء ! طالما بغوا وتجبروا !

سبحان من أذل الطغاة وأخضع المتجبرين ! سبحان من قدرته فوق القدر وقوته فوق القوى ، سبحان من أعز وأذل ورفع وخفض ! سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر !

وما هذه الأفلاك والأجرام السماوية ؟ !

أرباب كانوا يعبدونها من دون الله ! لم تنفعهم نجومهم ولم تنقذهم من الله نارهم !

وصلى سعد بالإيوان صلاة الفتح ، وصلى المسلمون شكراً لله ، ونزل سعد بالقصر الأبيض ونزل المسلمون بالقصور الكثيرة ، وطار البشير إلى القادسية يستقدم من فيها ، ورجال سعد يجمعون الغنائم من الدور والقصور والمخازن .

الله أكبر ! ألوف لا نستطيع حملها يا سعد ! قناطير مقنطرة من الأموال !

الله أكبر ! قباب يا سعد مملوءة سلالا مختومة بالرصاص ، حسبنا بها طعاماً فإذا هي مملوءة بآنية الذهب والفضة !

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وألوف من البقر والغنم ! وقناطير من الأطعمة والأشربة تملأ المخازن الواسعة !

سبحان الله ! أعدوها ليطيلوا الحصار ! وما تشاءون إلا أن يشاء الله !

وهذا بعض ما أدركنا مع الفارين يا سعد عند جسر النهروان !

يا سبحان الله ! حلية كسرى ! ثيابه وخرزاته ووشاحه ، ودرعه المرصعة بالجواهر طالما سامى بها سلطان الله ! كل هذا كان للدنيا الفانية ؟ !

وأخذ سعد يقسم هذه الغنائم بين المسلمين، ويستبقى قسم بيت المال ليرسله إلى الخليفة فى المدينة ، حتى جاءوه ببساط مربع منسوج قطعة واحدة طوله ستون ذراعاً كأنه الروض فى الربيع ، أرضه من الحرير فوقها النبات المنسوج بالذهب ، له نوار من الذهب والفضة ، والماء يجرى والطيور تغرد ، لا يشك من يراه أنه من صنع الطبيعة التى تتألق وتجيد ، فنظر سعد إلى هذا البساط ثم التفت إلى سلمان الفارسى وابتسم قائلا :

ـــ ولم كل هذا يا سلمان ؟ !

ـــ هذا شيء ثمين عندهم يا سعد ، لو استطاعوا حمله ما تركوه ، كانوا يعدونه للشتاء حين تقفر الرياض من الأزهار ويتغير وجه الأرض ، فيبسطونه إذا أرادوا الشراب ويشربون عليه ، كأنهم فى روض يانع ، فيتم السرور وتكمل المتعة كما يصنعون أيام الربيع .

وهز سعد رأسه وأطرق يفكر كيف يقسمه ؟ وكيف يعدل بين الناس فى قسمته ؟ ثم رفع رأسه وصاح بالمسلمين :

ـــ هل لكم أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماس هذا القطيف فنبعث به كله إلى عمر يضعه حيث يرى ، وهو عندنا قليل ولكنه يقع من أهل المدينة موقعاً يسر ، ويصور لهم بعضاً من ألوان هذا الفتح الجديد ؟

وارتفعت الأصوات فى رضى :

ـــ ها الله إذاً ، رضينا فاصنع ما تشاء .

وكانت درة تبحث عن أهلها وتسأل من عاد إلى المدائن بعد أن استقر أمرها ، ولم تترك منفذاً ترى فيه بصيصاً من النور إلا ذهبت إليه ، وأسرع من فى القادسية إلى المدائن وسكنوا الدور والقصور فرحين بنعمة الله ، وعاد رسول عمر يصف لسعد فرحة المدينة بالنصر وبما أفاء الله من الخير ، ويبلغه أمر عمر بتوليته ما فتحه من تلك البلاد .

وذات يوم دخلت درة على سيدها محزونة فصاح بها باسماً :

– لم تجديهم يا درة ؟ ! أفروا مع يزدجرد ؟ !

– وليس يزدجرد ببعيد عن سيفك يا سيدى ! ألست عازماً على اللحاق به ؟ !

عودة

وصل سعد ما بين المدائن القصوى والمدائن الدنيا ، ونهض ينظم أمور البلاد وينفذ فيها قوانين الإسلام ، ودرة دائبة البحث عن أهلها حتى عثرت على من أكد لها فرارهم مع يزدجرد ، فأخذها العجب إذ كان الأجدر بهم وهم عرب أن ينضموا إلى المسلمين ، ويحاربوا الفرس الذين طالما استبدوا بأهل الحيرة ، لكنها تذكرت أن أمها فارسية فقد تكون أثرت على أبيها انتصاراً لقومها ، وقد تكون العوائق حالت بينه وبين الاتصال بالمسلمين ، ولم تقطع درة الأمل فى اللقاء بهم ، وودت لو يسير سيدها إلى يزدجرد وتسير معه .

علم سعد بعد الفراغ من المدائن أن الفرس يتجمعون بمكان فى الشرق ، كما يتجمعون فى تكريت ذات القلعة الشامخة فى الشمال ، فبعث إليهم جنده ودارت المعارك الطاحنة ، ثم أقبلت الغنائم من تكريت ورسل قائدها ينشدون قوله فى نشوة النصر :

ونحن قتلنا يوم تكريت جمعها فلله جمع يوم ذاك تتابعـــوا
ونحن أخذنا الحصن والحصن شامخ وليس لنا فيما هتكنا مشايع

ثم لحقت بهم غنائم الشرق ، ورسلها يصفون ما جلل أرض المعركة من دماء الأعداء حتى سموا مكانها « جلولاء الوقيعة » ينشدون قول قائدهم فى فرحة الانتصار :

ويوم جلولاء الوقيعـــة أفنيت بنو فارس لما حوتها الكتائب

ويتحدثون عن ألوف الفرس الذين لاقوا مصارعهم ، ويخبرون سعداً بفرار يزدجرد إلى حلوان .

وأقام العرب فى تلك البلاد بعيدين عن المواطن التى نشئوا فيها والأجواء التى نبتوا بينها فتغيرت ألوانهم ، ولمح عمر هذا التغيير فى وجوه الوفود التى تقدم عليه من تلك البلاد، فأشار بإنزال العرب فى موضع يلائم ما اعتادوا، فارتاد سعد مكاناً غربى الفرات واختط به مدينة الكوفة ثم نادى بالمسير إليها . وكانت درة مشغولة بأهلها ، تود أن تسير إلى الشرق لا إلى الغرب، لكنها لم تكن كبيرة الثقة بما سمعته عن فرارهم مع يزدجرد إلى حلوان، فسارت إلى الكوفة آملة أن تجد مزيداً من الأخبار ، حتى يعزم سيدها على المسير إلى الشرق .

أقام سعد بالكوفة ، وجيوشه تتعقب الفرس ، وهو يمدها ويدير ما فتحه من البلاد ، حتى كان صباح يوم دخلت عليه درة بادية الدهشة :

ــ ماذا يا درة ؟ ! أعثرت على جديد ؟ !

ــ عجبٌ يا سيدى ! يؤكد آخرون أنهم أسروا فى بعض المعارك !

ــ لكنا بحثنا جميع الأسرى يا درة !

ــ يزعمون أنهم أرسلوا إلى المدينة يا سيدى !

وهز سعد رأسه ، وألقى ببصره بعيداً ، ثم قال فى هدوء :

ــ وددت يا درة لو عدنا إلى المدينة لنقيم بجوار رسول الله !

وانقضى ثلاثة أعوام ونصف ، وسعد بالكوفة محمود السيرة ، دائب النشاط مرضى العمل إلا من بعض الحاقدين الذين لا يخلو منهم مكان فى الأرض ولا يرضيهم قاسم ولا عادل ، ودرة مبلبلة الفكر متطلعة إلى المدينة تود أن يهيىء الله سفراً إليها ، ويزدجرد يجمع الفرس ، والمسلمون يستعدون لهم ، لكن الخليفة أرسل إلى سعد يستدعيه ، فأمر أهله أن يستعدوا ، وصاح بدرة يذكرها بالجبة ، ثم ساروا إلى المدينة .

لم يعد سعد إلى الكوفة ، وظل عامين بجانب رسول الله يحدث فى مسجده بما سمعه منه فى صحبته الطويلة ، ويشير على عمر فى أمر الجيوش التى تبطش بالفرس كلما تجمعوا ، والمدينة تموج بالناس من جميع البقاع ، وتمثل دولة الإسلام الممتدة فى الشرق والغرب ، ويستتر فيها بعض الحاقدين الذين يتحينون الفرص لينالوا من الإسلام وأهله ، وكان خنجر فارسىٌ من خناجر أولئك الحاقدين يعد لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين

حتى طعنه طعنات لم يرج منها البرء، فاضطجع فى فراشه يستقبل النهاية ، ولم ينس أن يوصى المسلمين بدين الله وسنة رسوله، وأن يجعل أمر الخلافة بأيديهم ، يختارون لها من يرضون عنه ، لكنه قصر هذا الاختيار على بعض أصحاب رسول الله من بينهم سعد بن أبى وقاص ، ثم صاح قبل أن يفارق الدنيا :

— أشهد الله أنى لم أعزل سعداً عن خيانة أو سوء ، وأوصى من بعدى بالاستعانة به إن لم يكن هو الخليفة .

فكر سعد فى هذه الدولة الممتدة الأطراف فى الشرق والغرب ، وفيما سيلاقى الخليفة بعد عمر ممن فتحوا عيونهم على الدنيا ، فأخرج نفسه من الشورى ، وبعد عن الخلافة راضياً وإن شارك فى اختيار الخليفة الجديد، ثم اجتمع المسلمون يقلبون وجوه الرأى حتى انتهوا إلى اختيار عثمان بن عفان ، فدعا عثمان سعداً إليه ثم قال :

— استعد يا سعد فقد وليتك الكوفة وأنت بها خبير .

— لكنى آنسٌ بجوار رسول الله يا عثمان !

— إنها وصية عمر يا سعد ، وهذه أعباء تلقى على القادرين ، واجب لا بد من قبوله !

وكانت درة تود لو عادت إلى الكوفة أو المدائن ، بعد أن يئست من جديد عن أهلها فى المدينة ، فاشتد بها الفرح حين علمت بعزم سيدها

على العودة إلى تلك البلاد التى دخلوها فى طليعة المؤمنين ، وسارت معه ثم استأنفت بحثها ، لكن حيرتها ازدادت حين عثرت على من أكد لها ذهاب أهلها إلى المدينة ، وأنهم إن لم يكونوا بها فهم لا ريب فى مكة أو فى بقعة أخرى من بقاع الجزيرة الواسعة ، وفكرت فى استئذان سيدها فى الحج إلى بيت الله الحرام ، وكان قد مضى على عودتهم إلى الكوفة عام وبعض عام ، لكن سيدها عاد ذات مساء إلى البيت يأمر بالاستعداد للرحيل فقد أعفاه عثمان من الولاية ، وأسرعت درة مع الركب يدفعها الأمل الذى لا يفارق صدرها وإن طالت به الأيام .

كان على ثمانية أميال من المدينة واد يانع كثير الحدائق يسمى وادى العقيق ، تقوم فى جوانبه قصور عالية ودور فسيحة أقامها أصحاب رسول الله منذ ولى عثمان ، فبنى سعد بذلك الوادى قصراً عالى الشرفات فسيح الجوانب ، وأقام به ، يتردد على المدينة ، ويزوره فيه أحباؤه ، ويتمتع فيه بالهدوء بعيداً عن زحمة المدينة وأعمالها ، وكان الحاقدون على الإسلام قد بدءوا يثيرون الناس على عثمان ليمزقوا الوحدة التى جمعها العدل ، وظلوا ينفخون فى ضرام الشر اثنى عشر عاماً ، وعثمان يتقلب بين سخط الساخطين ورضا الراضين ، حتى اشتعلت النار وامتدت أيدى المسلمين إلى خليفتهم عثمان فقتلوه ، وارتفعت رءوس الطامعين واحتدم النزاع ، واحتكم المسلمون إلى السيف ، وأبصر سعد هذا الشقاق فأحزنه وقد شهد الأمة العربية وهى

تتجمع ، والقبائل النافرة والإسلام يحتضنها حتى بناها دولة عزيزة منيعة ، فآثر أن يعتزل هذا الشر ، ولزم قصره بالعقيق ، وأمر أهله ألا يخبروه بشيء حتى تجتمع الأمة على إمام، وإن كانت بعض العيون تنظر إليه ، وتود أن يدخل الميدان ويدعو لنفسه معتقدة أنه أحق بالخلافة .

وذات يوم استأذن عليه هاشم بن أخيه وكان بطلا من أبطال الشام وفارس ، ودخل غاضباً ، فقرأ سعد ما فى وجهه ثم قال باسماً :

— خيراً يا هاشم ! اتفق الناس على إمام ؟ !

— وماذا يهمك يا عماه وقد اعتزلت وآثرت السلامة ؟ !

— وهل فى ذلك عيب يا هاشم ؟ ! أليس من حق الإنسان أن يؤثر السلامة ؟ !

— لكنك خلقت للجهاد والعمل ، ولا أدرى كيف تصبر على هذا الأمر ؟ ! ألست أحد الذين بشرهم رسول الله بالجنة ؟ ! ألم تكن أحد الذين اختارهم عمر للخلافة ؟ ! ألست أحد الذين قبض رسول الله وهو عنهم راض ؟ ! ألم تكن الفتى الحزوّر الذى فداه رسول الله بأبيه وأمه ولم يفد بهما أحداً غيره ؟ ! ألست صاحب أول دم أريق فى الإسلام ؟ ! أتستكثر على نفسك الخلافة ؟ !

وانتظر سعد باسماً حتى أتم ابن أخيه حديثه الثائر ، ثم قال فى هدوء :

— هون عليك يا هاشم فقد أبصرتها من بعيد ، لاخير فيها يا هاشم ،

إنها عبء ثقيل !

ــ أخائف من أعبائها وأنت من يحمل الأعباء الثقال ؟ !

ــ ليس اليوم يا هاشم ! لا يدرى المرء من له اليوم ومن عليه ، ولكنى أقبلها بشرط يا هاشم ،

وتهلل هاشم ؛ وقد ظن أنه أقنع عمه بالخروج من عزلته ثم قال فى سرور

ــ مر يا عماه ! أى شرط تريد ؟

ــ أن تحضر لى سيفاً يا هاشم .

ــ الأسياف كثيرة يا عماه ، وسيفك مشهور معلم ، وحولك كثير من الأسياف والرماح !

ــ سيفاً غير هذه السيوف يا هاشم ! أريد سيفاً يعرف المؤمن ويميزه من الكافر ، إذا ضربت به الكافر قطع . وإذا ضربت به المؤمن لم يقطع ! أتستطيع أن تجىء بهذا السيف يا هاشم ؟ !

وأدرك هاشم ما يعنى عمه وأنه لا يستطيع أن يعتمد فى هذا الأمر على أحد ، فانصرف غاضباً وظل سعد فى عزلته بعيداً عن الشر الثائر ناعماً بالوحدة والهدوء ؛ ودرة تفكر فى أهلها كبيرة الأمل فى يوم تهب فيه نسمات عذاب تهديها إليهم ، وتريح صدرها مما يضطرم فيه .

الجبة

كان العام الخامس والخمسون الهجرى يطوى أعماراً وينشر أعماراً ، وقد استقرت الخلافة بعد النزاع الطويل لمعاوية بن أبى سفيان ، وانتقلت عاصمة الدولة من المدينة إلى الشام ، وسعد فى وادى العقيق يتردد بينه وبين المدينة أو يذهب إلى مكة ثم يعود ، وكان لهاشم ابن أخيه مولى من الأسرى الذين وقعوا فى يده وهو يطارد يزدجرد بحلوان ،فأحبه هاشم لعفته وذكائه وأعتقه ، لكنه ظل يعمل عنده ، ثم أقبل معه إلى المدينة ، ولم يتروج حتى جاوز السبعين ، منتظراً ابنة عم له تعاهد وإياها على الزواج صغيرين ،ثم خطفت وهى فى الطريق من الحيرة إلى اليمن ، وقد أقسم أن يبر بعهده حتى يجدها أو يموت .

وذات يوم كان سعد بن أبى وقاص يجلس فى حديقة قصره بالعقيق ، وحوله أبناؤه الكثيرون كباراً وصغاراً ، فنظر إليهم جميعاً وهز رأسه وامتلأت عيناه بالدموع ، فصاح واحد من أبنائه :

ــ خيراً يا أبتاه !

ــ خيراً يا بنى ، ذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعودنى عام الفتح ، وكنت أشرفت على الموت ولم يكن لى غير أختكم الكبيرة

فقلت : يا رسول الله إن لى مالا كثيراً ولا يرثنى إلا ابنتى ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ . قال : لا . قلت فبالشطر ؟ . . قال : لا . قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . فأحمد الله يا أبنائى أن جعلكم لى عقباً صالحاً وآتانى من المال ما يغنيكم عن الناس .

وتذكر سعد تلك العجوز التى أفنت حياتها وراء الأمل ، فدعاها ونظر فى وجهها الذى خطت فيه الأيام أكثر من سبعين عاماً ، وصمت قليلا ثم قال فى تأثر :

ــ أين الجبة يا درة ؟

فأسرعت فى خطوات قارب بينها كر الأيام ثم عادت بالجبة ، فنشرها سعد بين يديه وامتلأت عيناه بالدموع ، ثم طواها ومد يده بها صائحاً :

ــ رديها يا درة ، احفظيها لوقتها .

ومضى بدرة التفكير فى خمسة وخمسين عاماً طوتها الحياة على تلك اللفافة ، ثم قالت فى تأثر :

ــ أسر هذه الجبة معقود بسر أهلى ؟ ! لا حل لهذا ولا لذاك يا سيدى !

ــ ستعرفين يا درة قريباً أمر هذه الجبة ، ولكن ألا تتزوجين ؟ !

ألا تزالين تتعلقين بالخيال ؟ !

— ثقتى كبيرة فى الله يا سيدى !

وصمت سعد فى تأثر ، ثم قال فى هدوء :

— عند ابن أخى هاشم بالمدينة رجل فى مثل سنك ، يقول مثل ما تقولين ، وينتظر أن يفى بعهد مثل عهدك بعد أن جاوز السبعين ، ألا نجمع بين الأملين يا درة ؟ !

— قد لا يكون هو يا سيدى !

— نجمع أملا إلى أمل وعهداً إلى عهد ، وتنسين أنت ما فات وينسى هو ما مضى !

وودت درة لو رأت ذلك الرجل ، وهمت أن تطلب من سيدها دعوته ، ثم خشيت أن يحمل طلبها على أنها رضيت بزواجه فصمتت ، لكن سعداً أرسل يستدعيه ، ثم أحس بشىء فى صدره فقام إلى فراشه واضطجع فيه .

وأقبل هاشم ومولاه ، ونظر سعد إلى الرجل فابتسم ابتسامة راضية إذ كان قريب الشبه من درة ، ثم قال له فى هدوء :

— من أين أيها الشيخ ؟

— من الحيرة يا سيدى .

— عربى أيها الشيخ ؟

— عربى يا سيدى ، كنت أعمل مع عمى فى قصر كسرى .
— ولم انصرفت عن الزواج حتى هذه السن ؟ !
— إرادة الله يا سيدى ! قدرة فوق القدرة ، وقوة فوق القوى !
— وإلى متى أيها الشيخ ؟ !
— حتى يأذن الله وألقى من أنتظر !
— وإذا وجدتها أيها الشيخ ؟ !

وصمت سعد وقد أحس بوخزة فى صدره ، وأذن للرجل بالانصراف ثم قال لهاشم فى صوت خافت :

— كأنه هو يا هاشم ! إنه كبير الشبه بدرة ؛ ولكن الوجوه تتقارب والناس يتشابهون ولا أظنها تعرفه إذا رأته إلا أن تكون جاذبية الدم، فتأكد يا هاشم من أمره لتجمع بين هذين القلبين اللذين فرقت بينهما الأيام .

خرج هاشم ، ودعا سعد درة ونظر إليها ، واستعاد ذهنه درة الصغيرة ذات الوجنتين المتوردتين والعينين النجلاوين ، وجعل بجانبها هذه العجوز التى غيرت منها الأيام ثم صاح فى تأثر :

— سيتحقق الأمل يا درة ، ولكن أين الجبة ؟

فأسرعت درة ثم عادت بالجبة ، فنشرها سعد بين يديه ، وانهمرت الدموع على خديه ثم قال فى صوت مختنق :

— سأفارق الحياة يا درة ! وقد أوصيت هاشما بما يثلج صدرك .

ــ بقيت يا سيدى ، عمر طويل وعمل صالح !

ــ أبعد الثمانين يا درة ؟ !

ــ وبعد أضعافها يا سيدى، تعمر كما يعمر الكثير من العرب .

ــ أحس بدنو الأجل يا درة وأخاف لقاء الله ، سفر طويل وزاد قليل ! !

وصمت سعد ودموعه منهمرة ، وبدا الإعياء فى وجهه ، فأسرعت درة ثم عادت بأبنائه وأهله ، فالتفوا حوله يدعون له بالسلامة والعمر الطويل ، فقلب عينيه فى وجوههم ثم قال والدموع تشق خديه :

ــ إنها الحياة يا أبنائى ! خداعة غرارة، لابقاء فيها وإن طال الأجل وامتدت الأيام ، صاحبها كراكب استظل بظل شجرة ثم تركها وانصرف.

ووضع يده على كبده ثم قال فى أنفاس مسرعة :

ــ مرضت يا أبناء ذات مرة فوضع رسول الله يده على جبهتى ومسح وجهى وصدرى وبطنى وقال : اللهم اشف سعداً ، فلا أزال أحس برد يده على كبدى حتى الساعة ، وإنى فى شوق إليه ، خائف من لقاء الله ، وقد أعددت لهذا اليوم جبتى التى حرصت عليها خمسة وخمسين عاماً ، منذ لقيت المشركين فيها ببدر لتشهد لى ساعة اللقاء !

وأدار عينيه فيمن حوله حتى وقع بصره على هاشم ابن أخيه فصاح به :

ـ درة يا هاشم ! حقق أملها،ولا تتمهل بعد أن تنفضوا أيديكم من قبرى حتى تنفذ ، درة يا هاشم !

ومد سعد يده ومسح بعض الدموع المتحدرة على وجهه، ثم أراد أن يعيدها مرة أخرى فارتمت بجانبه وشفتاه ترددان فى همس :

« وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ثم سكت الصوت والتصقت الأجفان على العينين النافذتين ، وسكن الجسد الذى طالما تحرك فى سبيل الله ، ووقف الأحباء حول الجثة فى خشوع ، ثم غسلوها وكفنوها فى جبة بدر .

وفى الصباح كان المسلمون يتزاحمون فى الطريق من العقيق إلى المدينة ، يتسابقون فى تقديم كواهلهم لتحمل نعش سعد بن أبى وقاص خال رسول الله وصاحب رسول الله ، حتى وصلوا مسجد الرسول فصلوا عليه ثم ساروا به إلى البقيع ليثوى مع من سبقوه إلى رضوان الله من الصحابة الأبرار.

رقم الإيداع	١٩٩٥/٩٥٧٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5105-4

١٠٢/ ٩٥/ ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)